

www.alrased.net

سلسلة إلكترونية شهرية متخصصة بشؤون الفرق من منظور أهل السنة   العدد ١٤٢ ربيع الثاني ١٤٣٦ هـ

السؤال الحقيقي اليوم ؟

المحتويات

فاتحة القول

فرق ومذاهب

سطور من الذاكرة

دراســـات

كتاب الشهر

قالوا

جولة الصحافة







رسالة دورية تصدر بداية كل شهر عربي

تتوفر من خلال الاشتراك فقط

قيمة الاشتراك لسنة

(٣٠) دولار أمريكي

العدد (١٤٢)

ربيع الآخر - ١٤٣٦ هـ

www.alrased.net

info@arased.net





السؤال الحقيقي اليوم

ليست الظروف الصعبة التي تمر بها الأمة الإسلامية في هذه المرحلة بأصعب مراحل تاريخها، فقد شهدت أمتنا ظروفا وأحوالا أصعب من هذه بكثير، سواء على المدى التاريخي البعيد كما حدث في الحملات الصليبية المجرمة أو مع الغزو الهمجي للمغول والتتر على بلاد الإسلام أو في كارثة سقوط الأندلس، أو عبر التاريخ القريب من الغزوات الاستعمارية وما أعقبها من حروب التحرير، وتخلل هذا الكثير من الكوارث الطبيعية كالمجاعات والزلازل والفيضانات.

ورغم هذا كله سرعان ما كانت أمة الإسلام تعود قوية فتية تنشر الإسلام والسلام والرحمة والعدل والإحسان في ربوع البشرية، وهو ما سيحدث قريباً بإذن الله عز وجل.

ولذلك وبرغم شراسة العدوان على المسلمين والإسلام اليوم في مختلف ربوع الأرض، فإن إيماننا بنصر الإسلام والمسلمين لا يتزعزع، وإن ثقتنا بتجاوز المخاطر لا يخالطه أدنى شك.

ولكن السؤال الحقيقي والهام والذي يجب أن نتوقف عنده، ليس هو: هل سينتصر المسلمون؟ فهذه حقيقة ويقين لا يقبلان النقاش والجدال عندنا، ولكن السؤال الحقيقي: هل أنا كمسلم ممن يعمل لنصرة الإسلام؟ وهل سيكون لي إسهام في هذا النصر؟ أم أنا عائق من عوائق النصر؛ إما بسلبية وتقصير، أو بكليهما، وإما بعمل غير مفيد يضيع الجهود أو يجلب المضار ويؤجل النصر؟

هذا هو السؤال الحقيقي والهام اليوم والذي يجب أن يقف كل مسلم ومسلمة أمامه بتجرد. وهذا السؤال يشمل الأفراد والجماعات والدول، ويشمل العامة والدعاة والعلماء والساسة والحكام وأهل الإعلام والثقافة.

ولن يكون بالإمكان الإجابة على هذا السؤال إلا إذا فهم كل مسلم ومسلمة حقيقة الإسلام وأنها الاستسلام لأمر الله عز جل في كل شيء، وجعل ارتباطها بالوحي الرباني (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة)، والاهتداء بفهم خير القرون (الصحابة الكرام) في فهم الدين، بدون شطح أو تحريف أو نقصان.

ومَن فهم حقيقة الإسلام أمكن له أن يعرف - بنفسه أو من خلال العلماء الصادقين- كيف ينصر الإسلام والمسلمين فيما يتعرضون له من تحديات ومخاطر وعدوان، نصرة تكون بحكمة وفعالية وتأثير، قد تزيل العدوان والشر أو تخففه، أو تحاصره كي لا يمتد أو يشتد، كنوع من الوقاية، وليست نصرة غبية تفاقم الشر الواقع وتجلب الخطر المحدق وتستدعيه بحماقتها وجهلها.

والتحديات الكبرى التي تعانيها أمتنا اليوم تنقسم بين مظالم بشعة ومؤلمة وقعت ولا زالت مستمرة لليوم على أجزاء متعددة من بلاد الإسلام، وبين تحديات يخشى أن تقع، ومن أمثلة ذلك:

فمن التحديات التي وقعت: احتلال اليهود لفلسطين ومن قبل جمهوريات آسيا الإسلامية، أو تمزيق أجزاء من بعض البلاد الإسلامية كدولة جنوب السودان، ومن قبل تيمور الشرقية في أندونيسيا، وسنغافورة من ماليزيا وهكذا.

أو مجازر دموية مروعة من قبل الكفار من اليهود والنصارى والبوذيين والهندوس والشيوعيين، في فلسطين وروسيا والصين والهند وبورما (أركان) وأفريقيا الوسطى أو من قبل الطوائف الإسلامية المنحرفة والضالة كالشيعة والنصيرية والخوارج في العراق وسوريا واليمن.

أو تسلط بعض الطغاة والظلمة على رقاب العباد والبلاد، كالقذافي الهالك وبشار والمالكي.

أما التحديات التي يخشى أن تقع مستقبلاً، فمنها:

- تجزئة وتقسيم ما بقي من بلاد المسلمين السنة صامداً في وجه المخططات الطائفية أو اليهودية والغربية،

ولو كان في غاية الضعف أو المسايرة لقوى الغرب، وبدلا من أن يكون عندنا ٢٢ دولة عربية يريدون مضاعفة عددها، لتزيد الفرقة والانقسام في الأمة بدلا من الوحدة والانسجام.

- حدوث صراع مسلح بين الأنظمة الحاكمة وبين التيار الإسلامي السياسي في هذه البلاد.
- تطاول العلمانية الليبرالية واليسارية على الإسلام وشعائره بالكامل، بما يعيدنا للسياسة القذرة لتجفيف منابع التدين بين المسلمين.
- تمدد المشروع الشيعي الطائفي في بلاد الإسلام بالتحالف مع الغرب أو عبر غباء بعض الجماعات الإسلامية السنية أو على ظهور العملاء من التيارات القومية والعلمانية واليسارية.
- عودة الغزو الغربي للدول الإسلامية كحملات صليبية أو موجات استعمارية بحجة محاربة التطرف والإرهاب.
- بقاء الأنظمة الفاسدة والظالمة وتفاقم شرها، مما يضعفها بالكلية أمام الخارج، أو يفجرها من الداخل الغضب الشعبي.
- تقوية التيارات البدعية والمنحرفة أو حتى الطوائف المرتدة بين المسلمين، لتحريف الإسلام عن حقيقته وتطويعه ليشرعن كل المظالم والمفاسد للنخب الحاكمة في العالم وبلاد الإسلام.

هذه التحديات بنوعيها، هي تحديات ضخمة وكبيرة، وتحتاج إلى وعي وعلم من كل مسلم حتى يكون في المكان الصحيح، والذي يجلب المصلحة والمنفعة، ويدرأ المفسدة والشر.

والمسلمون أمام هذه التحديات أقسام عدة:

منهم مَن يعد من بلائها ومرضها، إما لكونه عميلاً لأعداء الإسلام وهؤلاء موجودون في كل مكان وزمان وعلى رأسهم المنافقون، أو الباحثون عن مصالحهم الشخصية الضيقة.

ومنهم السلبي الذي لا يدري عن شيء سوى طعامه وشرابه ولذته، كالبهائم والأنعام.

ومنهم المسلم الحريص على مصلحة أمته ونصرتها، لكن عدته لذلك الجهل والتهور، فمثله كمثل الدب الذي هشم وجه صاحبه ليطرد ذبابة!

ومنهم المسلم الذي عنده من العلم ما يعصمه عن التهور والتطرف، لكنه سلبي لا دور له، بسبب ضيق الأفق وضيق الرؤية لحجم التحديات التي تواجه الأمة اليوم، أو يكون قد دب إليه اليأس وفقد الأمل، رغم ما عنده من حب للإسلام ونصرته.

ومنهم المسلم الذي عنده من العلم والفهم وسعة الأفق والرؤية الواسعة لحجم التحديات، لكنه يفتقد لبرنامج عمل صحيح ومتكامل، فتجد أنه يقتصر على جوانب دون أخرى.

وخيرهم حالا وأقلهم عددا من كان عنده من الإيجابية والعلم والفهم والحكمة والذكاء ما يعصمه من الكسل والخور، والتهور والتطرف، والجزئية والتقزيم، واليأس، فله في كل جبهة سهم، ولا تغره الشعارات البراقة، ولا تخدعه الفخاخ المزينة، يسير برؤية واضحة وهدف بين، يعرف صديقه من عدوه، ويدرك قوته وضعفه.

وهذا يعيدنا للسؤال الحقيقي: هل لي دور مقابل هذه التحديات؟ وهل هو دور في الجانب الصحيح؟ أم أنا لا دور لي، أو أن دوري في المكان الخطأ؟!

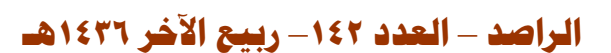
وختاماً فإن الحكمة اليوم تقتضي:

- الحفاظ على أي مكتسب للأمة الإسلامية كي لا يضيع، فليس من الحكمة إضعاف أي دولة أو كيان للمسلمين لا يعادي الإسلام، حتى ولو كان عليه ملاحظات ومؤاخذات كثيرة، وقد أحسنت حركة النهضة التونسية بتجنب الخطأ المصري.
- الحرص على تمتين الجبهة الداخلية وتجنب أي صراع داخلي ما أمكن؛ لأن قدرة الخصم على استثمار وتوظيف خلافاتنا أكبر من قدرتنا على مقاومته، ويكفي للعبرة تأمل مآل الثورة السورية حين أعلنت داعش الحرب على بقية الفصائل.
- تجنب الصفقات مع بعض أعداء الأمة تجاه البعض الآخر، فليس في اللجوء لإيران منفعة لحماس، وليس في اللجوء للغرب أو إسرائيل منفعة لفتح أو الأنظمة العربية.

نحن في حالة ضعف ورخصة، ولسنا في حالة قوة وعزيمة، فنحتاج إلى الاقتصاد في المواقف البطولية والعنترية، لصالح المداراة وتجزئة الأهداف، وتفريق صف الخصوم، وعدم الرفض التام لأي علاقة بالخصوم، ولنا في مسيرة أردوغان بصيرة وعبرة.

وتوسيع دائرة المعرفة بالواقع وحسن المشاركة فيه ودراسة مداخل التأثير الفعالة، هي من أوجب الواجبات على المتصدرين للشأن العام من الدعاة والعلماء والمفكرين والنخب، فأزمتنا الحقيقة هي في كيفية تنزيل الحق الشرعي على مجريات الحياة، وكيفية التحرك بالإسلام في هذا العالم الحداثي المتقلب بسرعة، ولنا في مشورة الحباب بن المنذر لرسول الله ﷺ في معركة بدر عبرة، حين سأل: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه؟ فنحتاج إلى أمثال الحباب كثيراً في هذا الزمان، الذين يعرفون الحق ويعرفون كيف يتحركون به، فينصرون الإسلام.





أذرع وزارة الخارجية الإيرانية في تنفيذ المشروع الإيراني في المنطقة العربية

صباح الموسوي الأحوازي(*) – خاص بالراصد

تتسم السياسة الخارجية الإيرانية بطبيعة معقدة ومتشابكة.

فالباحث والمهتم بهذه السياسة يجد عند دراسته ومتابعته لها التورية والابهامات ظاهرة في جوانب كثيرة منها حيث يتداخل فيها الديني بالقومي، والثورية بالبراجماتية. كما اتسمت السياسة الخارجية الإيرانية بالإثارة والمراوغة وتوزيع الأدوار واللعب على عامل الزمن، وقد انعكست كل هذه الملابسات على طبيعة السياسة الإيرانية تجاه المنطقة العربية متأثرة بالعوامل والمرتكزات التي اعتمدتها كأساس لتحركاتها. ولكي نقف على طبيعة السياسة الإيرانية الخارجية، لا بد لنا من معرفة تلك العوامل والمرتكزات، وخاصة الأساسية منها المؤثرة في السياسة الخارجية الإيرانية تجاه العرب وقضاياهم.

١- المرتكز الجغرافي:

يعد الموقع الجغرافي من العوامل الأكثر تأثيرا في صياغة السياسة الإيرانية الخارجية في المنطقة. فالموقع الجغرافي من أهم العوامل المؤثرة والدائمة في سياسة إيران الخارجية ومن أكثر مقوماتها ثباتا، إذ تقع إيران في الجزء الغربي من قارة آسيا، وتمتلك مساحة كبيرة شكلت من خلالها مساحة جغرافية متكاملة، انعكست على سياستها الداخلية والخارجية. ويمتاز موقع إيران الجغرافي، بأنه من المواقع المفتوحة نحو الخارج، إذ تمتلك إيران سواحل بحرية طويلة موزعة على أكثر من منفذ بحري من جهة الشمال (بحر قزوين) ومن جهة الجنوب الغربي (الخليج العربي) وتعد هذه السواحل نافذة إيران الرئيسة على العالم الخارجي، إذ تسيطر إيران من خلالها على ممرات مائية هامة وحيوية.

وقد كانت لهذه المنافذ البحرية تأثيرات كبيرة على طبيعة العلاقات الإيرانية مع العالم الخارجي،

(*) عضو منتدى المفكرين المسلمين.

ولاسيما دول الخليج العربي كما شجعها هذا الموقع على الاتصال المباشر مع البحار المفتوحة، وخصوصا من جهة الجنوب، إضافة إلى أن إيران قوة بحرية من خلال بناء القواعد العسكرية على تلك السواحل ولاسيما سواحل الخليج العربي[1].

٢- المرتكز التاريخي:

يعد العامل التاريخي من العوامل المهمة في سياسة إيران الخارجية فهو يتلازم مع المرتكز الجغرافي في رسم وصياغة سياساتها تجاه المنطقة العربية، وتستخدم القيادة الإيرانية هذا المرتكز في تفسير طبيعة فهمها للماضي والاستفادة منه في تعبئة الجيل الحاضر وطنيا وفكريا، وتحديد وصياغة وجهات نظرها نحو المستقبل. وتاريخ الدولة الإيرانية التي برزت قبل ١٢ قرنا من ظهور الإسلام فرضت خلاله سيطرتها فيه على مناطق شاسعة شرقا وغربا، لذا أصبح العامل التاريخي بالنسبة للدولة الإيرانية عاملا مهما في رسم سياستها عبر التاريخ، وأساسا وقاعدة منهجية في سياسة التوسع الخارجي.

وقد اعتمدت إيران في ظل الأنظمة المتعاقبة، وفي ظل النظام الراهن، على مبدأ التعامل الفوقي مع العرب، منطلقة من العامل التاريخي، الذي كانت لإيران فيه - في عهد الامبراطورية الفارسية- سلطة على بعض الدول العربية بحكم كونها إمبراطورية كانت تتسم بروح التوسع والهيمنة والسيطرة العسكرية.

٣- المرتكز الديمغرافي:

للمرتكز الديمغرافي أو كما يعرف بالتركيب الإثني للمجتمع الإيراني تأثير أيضا في السياستين الداخلية والخارجية لإيران، ولقد أدركت السلطة السياسية الإيرانية ولفترات زمنية طويلة، أن استمرار بقاء الدولة الفارسية واستمرار قوتها يكمن بالسيطرة على تلك القوميات، من خلال إخضاعها لتهديد أو تحدٍّ خارجي، وإثارة شعور الخوف لدى تلك القوميات من خطر تعتقد أنه يهدد الدولة الفارسية، وكثيرا ما كان ذلك التحدي في نظرها هو التهديد القادم من الغرب، والمقصود به العرب.

وتجسد رد الفعل الإيراني على هذا التهديد من خلال محاولة التوسع والسيطرة على بعض الأراضي العربية المجاورة، حيث اعتمدت السلطة السياسية في إيران على مبدأ التوسع الخارجي مسوغاً لسياسة التوسع الداخلي، من خلال الهيمنة والسيطرة على القوميات غير الفارسية.

كما استغلت إيران وجود بعض الجاليات الإيرانية في العراق ودول الخليج العربي التي هاجرت بدوافع اقتصادية، فأخذت تشجع على الهجرة إلى تلك المناطق بشتى الوسائل والأساليب، وتحديدا نحو سواحل الخليج العربي، وقد مارست إيران هذه السياسة منذ القرن التاسع عشر واستمرت عليها إلى ما بعد النصف الأول من القرن العشرين.

٤- المرتكز العقائدي:

وجدت إيران في التشيع متراسا يحمي هويتها القومية والثقافية، ورمحا تطعن فيه، وسهما ترمي به، ووسيلة تخترق به الدول العربية والإسلامية. وما حصل من حروب صفوية عثمانية، وما تقوم به اليوم في العراق ودول منطقة الخليج العربي وبلاد الشام، يظهر بوضوح مدى استغلال السلطة الإيرانية لهذا المرتكز. فعلى الصعيد الداخلي تعامل العربيَ الشيعيَ الأحوازيَ بمنطلق قومي عنصري، وتعامل السني الإيراني، وان كان أعجميا، من منطلق طائفي، حيث أنها ترى في الفكر الإسلامي السني مشروع تعريب، وترى في العربي عدوا ثقافيا

---

(١) الدكتور أحمد شاكر العلاق - جامعة الكوفة - كلية الآداب - قسم التاريخ.

وتاريخيا لا يمكن التعامل معه ولكنها في التعامل الخارجي تقوم على استغلال عواطف الشيعي، عربيا كان أو أعجميا، ومحاولة ربطه بإيران من خلال الخطاب الطائفي المبني على العاطفة.

وإذا ما قرأنا السياسة الخارجية الإيرانية بتمعن نجد أن هذه المرتكزات الأربعة اعتمدت كمرتكزات لحروبها الدامية عبر القرون الماضية وحروبها في الوقت الراهن.

المؤسسات الداعمة للمخططات السياسية والأمنية الإيرانية في المنطقة

لقد اعتمدت السياسة الخارجية الإيرانية على المرتكزات الأربعة التي أشرنا لها واتخذتها أساسا ومنطلقا لتصدير الثورة «والتي تعني التوسع وبسط النفوذ الإيراني» ليس في منطقة الخليج العربي وحسب، بل وفي عموم منطقة الشرق الأوسط، مستغلة جملة من العوامل والظروف الدينية والسياسية والتاريخية والاقتصادية لتحقيق أهدافها المنشودة. كما اتخذت من مناطق في آسيا الوسطى وشمال أفريقية مراكز نفوذ لها وقواعد ارتكاز لتحقيق اختراقات في البلدان التي تم تحديدها لتكون هدفا لمشروعها.

وللتغطية على مآربها الحقيقية، اتخذت السياسة الخارجية الإيرانية من القضية الفلسطينية ودعم بعض الفصائل الفلسطينية غطاء لكسب التعاطف العربي والإسلامي، واستغلال الأقليات الشيعية في البلدان العربية حصان طروادة لمخططها، ومن معاداة أمريكا والكيان الصهيوني شعارا لها، وتقديم المعونات المادية والعسكرية لبعض الدول العربية والأفريقية الفقيرة، مدخلا للنفوذ وقواعد انطلاق نحو الدول المستهدفة.

أذرع وزارة الخارجية الإيرانية:

وقامت إيران بتأسيس سلسلة من المؤسسات والدوائر لتكون أجنحة لوزارة الخارجية لمساعدتها على تحقيق إستراتيجيتها . ومن بين هذه المؤسسات يمكن ذكر الأسماء التالية:

المستشاريات الثقافية الإيرانية: وتقوم على نشر وتدريس الثقافة الفارسية وكسب المتعاطفين ونقلهم لإيران لإكمال التعليم باللغة الفارسية وتغذيتهم بمزيد من الثقافة والأفكار ومن ثم تجنيدهم عبر تقديم المغريات المادية والمعنوية.

المجمع العالمي لأهل البيت: وهو تنظيم سياسي بواجهة دينية، ويرأسه حاليا الشيخ محمد حسن أختري، السفير الإيراني الأسبق في سوريا، ويعمل هذا المجمع سنويا على عقد مؤتمرات لوضع الخطط للشيعة في العالم ومراجعة ما تم إنجازه من الخطط في الأعوام السابقة.

مجمع التقريب بين المذاهب: الذي يرأسه الشيخ محسن الأراكي، وهو رئيس المحاكم الثورية السابق في الأحواز وعضو في حزب الدعوة العراقي. ويقوم المجمع المذكور على عمل دعائي لذر الرماد في العيون بهدف إبعاد تهمة الطائفية عن النظام الإيراني، ودعم مشروع نشر التشيع في الدول العربية وكسب أصحاب الحركات الصوفية ومشايخ وجماعات إسلامية سياسية معروفة تحت عنوان الوحدة الإسلامية. وأسس المجمع عام ١٩٩٠م بأمر من علي خامنئي.

منظمة التبليغ الإسلامي: تقوم بالإشراف على الحسينيات والمراكز الدينية الشيعية في الخارج وتقديم الدعم والرعاية لها، ومد هذه المراكز بمبلغين (قراء المراثي) الذين يتم إرسالهم من إيران بعد ان يجري إعدادهم إعدادا جيدا للمهام المنوطة بهم. بالإضافة إلى ذلك تقوم المنظمة بطبع الكتب الدينية والثقافية وتوزيعها بالمجان وتعقد المؤتمرات لنشر ثقافة التشيع وتمجيد النظام الإيراني ورموزه.

المدارس الإيرانية في الخارج: تعمل على نشر الثقافة الإيرانية من خلال فتح باب القبول لغير

الإيرانيين مجانا، وكسب الطلبة الإيرانيين المقيمين في الخارج وتجنيدهم لصالح النظام ضد المعارضة، والقيام ببناء علاقات مع غير الإيرانيين وكسبهم لصالح إيران.

الحوزات الدينية في الخارج: تقوم على نشر تعاليم وفقه العقيدة الشيعية وقبول الطلبة من غير الشيعة وإعطائهم المنح الدراسية في قُم بعد إكمالهم مرحلة ما يعرف بالمقدمات في بلدانهم.

ممثليات مرشد الثورة في الخارج: وتقوم على تقديم الدعم المالي لطلاب الحوزات الدينية والإشراف على أداء عمل المؤسسات الإيرانية في الخارج وترويج مرجعية مرشد الثورة علي خامنئي. وإلى جانب هذه المراكز والمؤسسات هناك دوائر أخرى تعمل في إطار تحقيق المخطط الإيراني وهذه الدوائر بعضها ثقافية وأخرى سياسية والبعض الآخر خدمية، وهي:

مؤسسة جهاد البناء: ولها أفرع في السودان وسورية ولبنان، وتقوم بمد خطوط الكهرباء ومد أنابيب المياه وحفر الآبار وبناء المساكن والمدارس والطرق.

لجنة الإمام الخميني الإغاثية: وهي مؤسسة خدمية تقدم المعونات المالية والخدمات الصحية والاجتماعية، وتعد من المؤسسات الثورية. ولها فروع في العراق، سورية، السودان ولبنان.

مركز حوار الحضارات: تابع لرئاسة الجمهورية ويقوم على الترويج للثقافة والحضارة الوطنية الإيرانية وتلميع صورة النظام الإيراني تحت يافطة الحوار بهدف كسب المؤيدين لإيران من خلال بناء العلاقات مع المثقفين والمفكرين العلمانيين والليبراليين العرب ودعم المؤتمرات والتجمعات القومية والوطنية العربية.

مؤتمر دعم الانتفاضة الفلسطينية:

يرأس هذا المؤتمر الشيخ علي أكبر محتشمي بور، السفير الإيراني الأسبق في سوريا، المؤسس الأول لحزب الله في لبنان. ويعقد المؤتمر في طهران مرة كل عام ويجري فيه دعوة قيادات من الفصائل الفلسطينية وبعض قيادات التنظيمات الإسلامية والقومية العربية ممن لهم علاقات متينة بإيران. أما السواد الأعظم من المدعوين لهذا المؤتمر فهم كتاب وصحفيون ونخب ثقافية من عدة دول عربية وإسلامية وأغلبهم عاطل عن العمل ويتم إغراؤهم بالهدايا وبعض الهبات المالية ومساعدتهم على تحقيق رغباتهم في بلدانهم، ومع الأيام يصبحون مرتبطين بالمشروع الإيراني من حيث لا يعلمون أو يعلمون بعد أن أسرتهم الإغراءات.

وتعمل جميع هذه المؤسسات في كل بلد تتواجد فيه تحت إشراف لجنة مشتركة مكونة من السفير، مدير مكتب المخابرات، وممثل المرشد الأعلى وممثل من فيلق القدس. ويرأس هذه اللجنة السفير.

إن بعض هذه الدوائر والمؤسسات تعمل في أغلب الدول العربية بحرية تامة وفي أحيان كثيرة تلاقي تعاونا ودعما من جهات رسمية في بعض هذه الدول لتسهيل مهامها.

لقد استطاعت إيران في ظل غياب مشروع عربي موحد لمواجهتها، من تحقيق الكثير من حلقات مخططها حيث تمكنت من بناء الخلايا والشبكات التجسسية والجماعات الإرهابية والتنظيمات السياسية المعارضة في كثير من دول الخليج العربي إن لم يكن في أغلبها. كما استطاعت نشر برامجها الثقافية وسط شرائح واسعة من مجتمعاتنا العربية بكل سهولة.

وعلى الرغم من كل هذه الاختراقات التي أحدثتها إيران بقيت في مأمن من أي ردات فعل أو عمل خليجي أو عربي مماثل، فلم تعلن إيران - ولو لمرة واحدة- كشفها خلية أمنية أو جماعة

سياسية مرتبطة أو تعمل لصالح دولة خليجية . وأصبح عدم التعامل مع إيران بالمثل مفخرة لدى الدول العربية عامة والخليجية منها خاصة بدعوى عدم تدخلها في شؤون الغير! رغم أن لدى هذه الدول أوراقا كثيرة تشكل نقاط ضغط فعلية على إيران ولكن من المؤسف أنه قد جرى إغفال هذه الأوراق، ومنها على سبيل المثال، الخلافات الفكرية بين مراجع الحوزة الدينية، ورقة المعارضة الإيرانية، ورقة السنة والقوميات غير الفارسية، ورقة عرب الأحواز والجزر الإماراتية، وغيرها من الأوراق الداخلية الأخرى.

يضاف إلى ذلك أن الاعتقاد السائد لدى بعض القوى والأطراف الخليجية والعربية، دينية وسياسية وثقافية، أن إيران اعتمدت الشيعة فقط لتنفيذ مخططها، وهذا خطأ استراتيجي ساعد في تمكين إيران من إبعاد الكثير من خلاياها وأعوانها العاملين على تنفيذ مخططها عن أنظار الرقابة.

فمعظم الدول العربية، والخليجية منها تحديدا، دول مفتوحة وفيها جاليات من مختلف الجنسيات وقد استطاعت إيران أن تبني مؤسسات وشركات تجارية واقتصادية مع أفراد وجماعات أجنبية وغير مسلمة في هذه الدول، وعملت على استغلالها في تنفيذ مآربها الخاصة.

وهذا الأمر مارسته إيران على مناطق أخرى، ففي سابقة هي الأولى من نوعها في الإعلام الإيراني نشر موقع «تابناك» التابع لأمين عام مجلس تشخيص مصلحة النظام الجنرال محسن رضائي في ٢٠ أكتوبر الماضي مقالة نقدية بعنوان: (بعد وزارة النفط، الخارجية في قبضة الحرس الثوري) تطرقت فيه إلى دور الحرس الثوري في تسيير وزارة الخارجية بعد أن شغل عدد كبير من ضباط الحرس الثوري مناصب عليا في الوزارة وبعثاتها الدبلوماسية.

وذلك بعد اكتشاف محاولة اغتيال السفير السعودي في واشنطن حيث أثيرت ردود أفعال ناقدة لسياسة وزارة الخارجية والحرس الثوري من قبل دبلوماسيين سابقين وسياسيين وكتّاب وصحفيين إيرانيين. كان من بينهم السفير الإيراني السابق في المكسيك «محمد حسن قديري أبيانه» حيث وجه نقدا لدور الحرس الثوري في إدارة وزارة الخارجية.

وقد أيد السفير أبيانة ضمنا ما كان قد نشرته الصحافة المكسيكية قبل ثلاثة أعوام عن قيام الحرس الثوري الإيراني بدعم عصابات مافيا المخدرات وتهريب السلاح في المكسيك. حيث كانت صحفية «أونيورسال» المكسيكية قد تحدثت في تقرير لها نشرته بتاريخ ٢٠٠٨/٧/١٧م عن قيام قوات من فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني بفتح معسكر في شمال المكسيك لتدريب عصابات إرهابية ومافيا تهريب السلاح والمخدرات.

واتهمت الصحيفةُ السفارةَ الإيرانيةَ بالقيام بمساعدة أفراد الحرس الثوري على الزواج من مكسيكيات وتغيير أسمائهم للحصول على الجنسية المكسيكية لتسهيل تحركاتهم في أمريكا اللاتينية. وأكدت الصحيفة أن السفارة الإيرانية تقوم على تنظيم المعارض والمؤتمرات الثقافية وحفلات التعارف التي تدعو لها شبان وفتيات مكسيكيين بهدف بناء علاقات بينهم وبين عناصر الحرس الثوري.

وهذا الأمر مطابق لما كانت تقوم به السفارات الإيرانية في كل من سورية ولبنان مطلع الثمانينيات حيث كانت تقوم على تزويج عناصر من الحرس الثوري بفتيات لبنانيات وسوريات لغايات عديدة، منها تعلم اللغة العربية بلهجات سورية ولبنانية، والحصول على جنسيات وجوازات سفر لبنانية، والنفوذ في المجتمع والتغلغل في المؤسسات

والجمعيات والحركات السياسية والاجتماعية، ومآرب عديدة أخرى.

كما لا يمكن إغفال أو تجاهل استغلال إيران للأنشطة والأعمال الاقتصادية في تحقيق مآربها السياسية وأنشطتها التجسسية، فقد جاء في تصريح لمدير منظمة تنمية التجارة الإيرانية مهدي فتح الله في ٣ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٧م، أن الإمارات العربية المتحدة هي الشريك التجاري العربي الأول لإيران. ووفق المصادر الإيرانية فقد وصل حجم صادرات الإمارات إلى إيران في السنة المالية الإيرانية - ٢٠٠٥م نحو ٧,٥ مليارات دولار، فيما بلغ حجم صادرات إيران إلى الإمارات ٢,٥ مليار دولار. ولإيران جالية كبيرة في دول الخليج العربي، ففي دولة الإمارات وحدها تقدر بأكثر من نصف مليون إيراني، وهناك ما يقرب من ستة آلاف وخمسمائة شركة إيرانية تعمل في الإمارات.

وبلغت الأموال التي أدخلها المستثمرون الإيرانيون إلى دبي وحدها أكثر من مائتي مليار دولار في عام ٢٠٠٥ مع توقعات بارتفاعها إلى ثلاثمائة مليار دولار في العام ٢٠٠٦م. وهذا الأمر ينطبق على سائر دول مجلس التعاون الخليجي وإن كان بدرجات متفاوتة.

وتلتقي هذه الرؤية مع ما ورد في تقرير خاص وضعته جهة عربية، وأوردت فيه معلومات عن استعدادات لخلايا إيرانية في عدد من الدول الخليجية لبدء تحرك مرحلي، يبدأ بتجمعات شعبية في الحسينيات، ثم ينتقل إلى مستوى عصيان مدني يتمثل في إغلاق المتاجر والمحلات والامتناع عن العمل، إضافة إلى القيام بتظاهرات صاخبة، ويُحذر التقرير من خطورة هذه الخطوة، لأن التجار الذين يوالون إيران مذهبيا وسياسيا، يسيطرون سيطرة شبه كاملة على أسواق المواد الغذائية والقطاعات الخدمية الحيوية في الماء والكهرباء، بحيث إن العصيان المدني سيشل الحياة في هذه الدول. وهذا المخطط طُبق جزء منه في البحرين العام الماضي قبل دخول قوات درع الجزيرة التي أنقذت الموقف في الوقت الحرج.

الملخص:

إن ما تقدم يدفع كل مواطن عربي وخليجي غيور، أن يتمعن مليا بهذا الاستعراض، ليراجع نفسه ويتساءل عن السبب الذي جعل إيران تقوم بكل ما قامت به لحد الآن؟ والعوامل والأسباب التي جعلت إيران تتمكن من تحقيق كل هذا النفوذ الذي تحول إلى خطر داهم يهدد أمننا وسلامة مجتمعاتنا ودولنا؟ فهل السبب هو ضعف الأجهزة الأمنية العربية وعدم قدرتها على حماية أمننا القومي؟ (وهذا نشك به) أم بسبب ضعف القرار السياسي لحكوماتنا الذي شجع إيران على التمادي والتدخل في الشؤون الداخلية لدولنا وتهديد أمن واستقرار مجتمعاتنا؟ أم بسبب غياب المشروع العربي (رسميا كان أو شعبيا) القادر على التعامل مع إيران بنفس الأسلوب الذي تقوم به بهدف ردعها؟

علما بأن هناك فئات كثيرة من المجتمعات العربية لا ترى في إيران خطرا على أمنها، خاصة عندما تتم مقارنة إيران مع إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. فلأن إيران دولة مسلمة وترفع شعار دعم القضية الفلسطينية فهذا يسهل عليها اختراق المجتمعات العربية، وهذا ما هو حاصل بالفعل.

لذا نرى أن الأمر بحاجة ماسة إلى استراتيجيين للتصدي للمسألة ودراسة أبعادها وليس في عمل استطلاع رأي فقير معرفيا ومنهجيا. فالقضايا الإستراتيجية لا تناقش عبر استطلاعات الرأي على مواقع الإنترنيت والصحف أو عبر الجلسات العامة.

صلاح الدين ومؤامرات الفاطميين (١)
صلاح الدين يسقط الدولة الفاطمية

هيثم الكسواني(*) – خاص بـ «الراصد»

لا يملّ المرء من الكتابة عن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، فهو - بحق- شخصية «استثنائية»، وإذا كان صلاح الدين قد ارتبط في أذهان معظم المسلمين بانتصاره في معركة حطين، وتحريره للقدس من براثن الصليبيين، فإن جوانب أخرى من سياسته وجهاده بحاجة إلى تسليط الضوء عليها وإبرازها، لا سيما إسقاطه للدولة العبيدية الفاطمية، صاحبة المذهب الشيعي الإسماعيلي، وتمكّنه من إعادة مصر وبعض الأقطار الأخرى إلى مذهب أهل السنة والخلافة العباسية.

وفي أعداد سابقة من هذه الزاوية (سطور من الذاكرة) وفي زوايا أخرى من «الراصد» تحدثنا مرارا عن صلاح الدين، عن تحريره للقدس التي فرّط فيها الفاطميون، وأخذوها من أيديهم، وعن جهوده التربوية في ترسيخ مذهب أهل السنة في مصر، ودفاعه عن العقيدة الإسلامية، وبعض المؤامرات ومحاولات الاغتيال التي تعرض لها، وغير ذلك من المواضيع.

والحقيقة إن حياة صلاح الدين كانت أشبه بالبركان، فقد كانت تُحاك ضده المؤامرات تلو الأخرى، وينتقل مِن تحدٍّ إلى آخر، ولعلّ من أكثر التحديات التي واجهها رحمه الله – إضافة إلى الحروب الصليبية- تلك المؤامرات التي كان يحيكها ضده الفاطميون وأعوانهم، طيلة خمس سنوات، وهو ما يحتاج إلى مزيد من التفصيل، لا سيما ونحن نعيش هذه الأيام شيئا مماثلا، يتمثل بالثورات المضادة لثورات الشعوب العربية المتطلعة إلى الحرية والعدالة والكرامة.

إن الثورات المضادة التي شنّتها مؤخرا، وتشنّها حاليا، بقايا الأنظمة الفاسدة ضد الشعوب هي ذاتها الثورات التي كان يشنّها بقايا الفاطميين وأنصارهم من المنتفعين والمصلحيين ضد صلاح الدين ودولته الفتيّة، التي كانت في صراع وحرب مع الصليبيين وأطماعهم، والهدف في الحالتين: إعادة عقارب الساعة للوراء.

بداية الحكاية

تعود بداية صلاح الدين مع الدولة العبيدية الفاطمية إلى سنة ٥٥٩هـ، وهو العام الذي خرج فيه صلاح الدين نحو مصر، حيث مقر الفاطميين، في حملة عسكرية يقودها عمّه أسد الدين شيركوه، بأمر من الملك نور الدين محمود زنكي. كان السبب المباشر في توجيه هذه الحملة هو تقديم الدعم لوزير الفاطميين شاور السعدي، في مواجهة منافسه ضرغام المنذري، حيث كان ضرغام قد نافس شاور على المنصب وأخذه منه، فما كان من الأخير إلاّ الالتجاء إلى نور الدين لمساعدته في العودة إلى منصبه.

(*) كاتب أردني.

كان العبيديون الفاطميون –آنذاك- يعيشون أكثر مراحل ضعفهم وتدهور دولتهم، فقد كان الوزراء يفرضون أنفسهم على حكام الدولة، بل وصل الأمر بالوزراء إلى قتل الحكام وعزلهم وتوليتهم، ومعظمهم كانوا من الأطفال وصغار السن، الأمر الذي جعل نور الدين ينظر إلى مصر بأهمية بالغة، لا سيّما وأن الصليبيين الذين كانت حملاتهم تتوالى على المنطقة وضعوا هم أيضا مصر في حسبانهم وسعوا إلى السيطرة عليها.

والحقيقة فإن طلب شاور مساعدة نور الدين له في العودة إلى الوزارة كان بمثابة «الشرارة» التي حرّكت رغبته القديمة بالسيطرة على مصر، وثمة أسباب كثيرة دفعت نور الدين لذلك، منها:

١- أن الدولة العبيدية الفاطمية، صاحبة المذهب الشيعي الإسماعيلي، والعقائد المنحرفة، شكلت عامل ضعف وانقسام في الأمة، لا سيما مع وقوفها المتكرر مع أعداء الأمة، ومؤامراتها على أمة الإسلام ومذهب أهل السنة. فرأى نور الدين أن إعادة مصر إلى منهج أهل السنة والدولة العباسية يشكل عامل قوة ووحدة في الأمة.

٢- أن ضعف الفاطميين، والفوضى التي عمّت دولتهم، من شأنها أن تسهّل سقوط مصر بيد الصليبيين، الأمر الذي سيضعف من جبهة الشام المقاومة للصليبيين، والتي كان نور الدين يتزعمها في ذلك الوقت. وفي المقابل فإن سيطرة نور الدين على مصر سيجعل الصليبيين الذين كانوا مسيطرين على جزء من بلاد الشام بين فكّي كماشة.

٣- حصول نور الدين على عهد من الخليفة العباسي بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر، الأمر الذي قوّى من عزيمته.

٤- الاستفادة من خيرات مصر، ومواردها الاقتصادية والبشرية، في دعم جبهة الشام في الجهاد ضد الصليبيين.

وعلى كلّ حال، رأى نور الدين أن إرسال حملة برئاسة القائد المحنك شيركوه من شأنه الوقوف على حقيقة الأوضاع في مصر، رغم شكوكه في حقيقة نوايا شاور، والتزامه بما اتفقا عليه، ومنها بأن يتحمل شاور تكاليف الحملة العسكرية التي ستعيده إلى منصبه، ورواتب الجند، ويدفع لنور الدين ثلث خراج مصر، وإقامة عدد من أمراء بلاد الشام معه في مصر، إضافة إلى اعترافه بسيادة نور الدين وتنفيذ أوامره.

شارك صلاح الدين في هذه الحملة وعمره ٢٧ سنة، لكن السيطرة على مصر لم تتم لنور الدين زنكي إلاّ بعد ثلاث حملات عسكرية، عانى فيها أسد الدين وصلاح الدين (الذي كان الساعد الأيمن لعمّه) والجند الأمرّين من القتال والحصار، وحنْث شاور بعهوده، وتآمره مع الصليبيين، كما بذل فيها نور الدين غاية إمكانياته من توفير الجند والمال والسلاح، وتأمين الطريق من الصليبيين، وغير ذلك من المتاعب والصعوبات والمهالك التي استمرت مدة خمس سنوات، وتحديدا حتى سنة ٥٦٤هـ، عندما تمكن أسد الدين شيركوه من دخول القاهرة، عاصمة العبيديين الفاطميين، وقتل شاور لخياناته المتكررة.

صلاح الدين وزيراً

وكما جرت العادة بتولي المنتصر الوزارة، عيّن خليفة الفاطميين آنذاك، العاضدُ، أسدَ الدين شيركوه، وزيرا، لكنّ شيركوه توفي بعد شهرين فقط، ليعيِّن العاضدُ صلاحَ الدين وزيرا، خلفاً لعمّه، ويبدو أن صغر سن صلاح الدين في ذلك الوقت (٣٢ سنة تقريبا) هو مما شجع العاضد على توزيره لاعتقاده بإمكانية السيطرة عليه وتوجيهه.

تولى صلاح الدين الوزارةَ في شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م)، ومنصب الوزير -آنذاك- هو المنصب الأهم في الدولة، وهو صاحب السلطات الفعلية. لكنّ الأمر لم يكن بتلك السهولة على الإطلاق، فصلاح الدين كان أشبه بمَن يسير وسط حقل من الأشواك، إذ أن هدف نور الدين بالقضاء على الدولة العبيدية الفاطمية وإعادة

مصر إلى مذهب أهل السنة والدولة العباسية تمهيدا لأن تكون جبهة موحدة في مواجهة الصليبيين يواجه تحقيقه على الأرض صعوبات جمّة خبرها صلاح الدين أكثر من أي شخص آخر.

رأى صلاح الدين أن اقتلاع دولة الفاطميين، وهي التي دامت قرابة ثلاثة قرون من الزمان (قرنان منها في مصر)، واحتلت مساحة واسعة من العالم الإسلامي، لا يكون بقرار، وكان يرى التريّث باتخاذ خطوة كهذه، لا سيّما وأنها دولة عقائدية لها الكثير من المؤيدين (وبعضهم سنة)، على عكس رغبة نور الدين الذي كان يعتقد استحالة توحيد الجبهة الإسلامية طالما ظلت دولة الفاطميين، وبقي معهم مذهبهم الفاسد، ويلحّ على صلاح الدين باتخاذ هذه الخطوة.

هذا الاختلاف في وجهات نظر كلٍّ من صلاح الدين وسيدِه نور الدين جعل البعض من أصحاب الفكر الشيعي وغيرهم من الموالين للبيت الزنكي، وحديثا من العلمانيين، يضخّمون من أمر الخلاف ويصوّرونه على أنه غدر من صلاح الدين واستئثار بأمر مصر، على الرغم من أنه نائب لنور الدين فيها، وبالغ هؤلاء عندما تحدثوا عن حربٍ كادت تقع بين الرجلين، وغير ذلك مما يتمنونه.

وغاية الأمر –كما قلنا- إن صلاح الدين رأى أن إسقاط دولة الفاطميين أمر صعب، لذلك أخذ يعدّ العدة له، ويبذل في سبيل تحقيقه جهودا كبيرة ومتنوعة، سياسية وعسكرية، بل وحتى ثقافية وفكرية، إذ أن الدولة التي قامت على الفكر والعقيدة لا بد أن يكون للفكر والعقيدة دور في إسقاطها.

نحو إسقاط الدولة

اتخّذ صلاح الدين منذ توليه الوزارة في مصر جملةً من القرارات والإجراءات لإسقاط دولة العبيديين الفاطميين، وإعادة مصر إلى مذهب أهل السنة وممتلكات دولة الخلافة العباسية كما كانت قبل قدوم العبيديين الفاطميين إليها في سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)، ومن هذه الإجراءات:

- الإكثار مِن الجند الموالين له، وخاصة مِن الأتراك، بدلاً من الجند الفاطميين، أي بناء الجيش الخاص به، كما طلب من نور الدين أن يرسل إليه والدَه، نجمَ الدين أيوب، وأفراد أسرته، ليساعدوه في إدارة الدولة الجديدة، والاستغناء عن الكوادر الفاطمية، وقد عيّن صلاح الدين والدَه وزيرا للخزانة مما أتاح له السيطرة على أموال الدولة.
- التقليل من مكانة خليفة الفاطميين العاضد، لتحطيم فكرة قداسة الإمام الموجودة لدى فرق الشيعة كلّها، إذ ألزمه –مثلاً- على الخروج على استقبال والده نجم الدين، وكان ذلك أمرا مستغربا، إضافة إلى استيلاء صلاح الدين على ممتلكاته وخيوله بحجة الحاجة لها للجهاد. كما عمل صلاح الدين من التقليل من مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته.
- عزل جميع قضاة مصر الشيعة، وحصر مهمة القضاء في أهل السنة.
- إحراق كتب الشيعة الإسماعيلية، التي كان يستخدمها العبيديون الفاطميون للترويج لمذهبهم.
- إزالة الطقوس والبدع التي أدخلها العبيديون الفاطميون على الدين، فقد منع صلاح الدين إدخال عبارة (أشهد أن علياً ولي الله) على الأذان، أو السلام على خليفة الفاطميين فيه، كما ألغى أعيادهم المذهبية، وفي المقابل أمر الخطباءَ بالترضي على الخلفاء الراشدين والصحابة وأمهات المؤمنين رضي الله عنهم.
- أنه عطّل خطبة الجمعة من الجامع الأزهر، الذي كان أهم مراكز نشر الدعوة الإسماعيلية، وعطّل الدراسة فيه. كما سرّح دعاتهم، وألغى مجالس الدعوة.
- الحفاظ على أفراد الأسرة المالكة، ومراقبتهم، والتفريق بين الرجال والنساء ليكون أسرع إلى انقراضهم.
- إحياء صلاح الدين والأيوبيين لقضية النسب الفاطمي، حيث استقر المسلمون على

التشكيك بانتساب العبيديين إلى آل بيت النبي ﷺ، وإطلاق اسم «فاطمة» على دولتهم، وصدرت مؤلفات عدة في تلك الفترة تشكك بنسبهم، وأنهم في الحقيقة من نسب يهودي أو مجوسي، تستروا بالانتساب للإسلام وآل البيت.

- بناء المدارس المخصصة لنشر علوم أهل السنة، وتخصيص الأوقاف لها.
- عمله على استمالة المصريين من خلال تحسين أوضاعهم الاقتصادية، وإبطال الضرائب والمكوس التي كانت مفروضة عليهم، وأطلاق حرية التجارة.
- إبطال التعامل بالعملات الفاطمية، لأنها كانت تحمل عقائد شيعية من قبيل عبارة (عليٌّ ولي الله).
- الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن.
- فتح القاهرة، عاصمة الفاطميين، أمام الناس يدخلون ويخرجون منها ويبنون حولها كما يشاؤون، وقد كانت قبل ذلك مدينةً خاصة بخلفائهم، والقادة والمسؤولين، في حين كان معظم المصريين يسكنون في مدينة الفسطاط، التي بُنيت القاهرة بجوارها، والهدف من ذلك ابتذال عاصمتهم ومقرّ ملكهم.

الخطوة الحاسمة

استغرق الأمر من صلاح الدين حوالي ثلاث سنوات لاتخاذ الخطوة الحاسمة بقطع الخطبة عن العبيديين الفاطميين، وإعادتها إلى العباسيين، والإعلان رسميّاً عن عودة مصر إلى مذهب أهل السنة، وهو ما تمّ فعلاً في بداية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)، عندما قطع صلاح الدين الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي، في شهر المحرم من هذا العام، وأقامها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وأعاد السواد شعار العباسيين.

وما هي إلاّ أيام قليلة حتى مات العاضد، وطُويت بذلك صفحة مؤلمة من صفحات التاريخ الإسلامي، وطُويت بموته هذه الدولة التي حكمت مصر والشمال الإفريقي والحجاز واليمن وأنحاء من بلاد الشام حوالي ٣٠٠ سنة، ونشرت فيها الزندقة والبدعة، وتآمرت على الإسلام وأهله، وتحالفت مع أعدائه، وقد عمّ الفرح بسقوط هذه الدولة العالَم الإسلامي، حتى أنشد بعض الشعراء يمدح بني أيوب لما فعلوه بمصر، قائلاً:

ألستُم مُزيلي دولة الكفر من بني
عُبيدٍ بمصرَ إن هذا هو الفضلُ
زنادقة شيعية باطنية
مجوس وما في الصالحين لهم أصلُ
يُسرّون كفرا يُظهرون تشيّعا
ليستتروا شيئا وعمّهمُ الجهل

وإذا كانت الدولة العبيدية الفاطمية انتهت رسميّاً على يد صلاح الدين، إلاّ أنه عانى في سبيل ذلك أشد العناء والمشقة، إذ أن بعض أتباعها ومؤيديها والمنتفعين منها بذلوا كل الجهود لإعادتها (وقبل ذلك عملوا على منع سقوطها) وتآمروا على صلاح الدين، وتعددت هذه المؤامرات، وهو ما سنفصّل فيه في الأعداد القادمة بإذن الله.

للاستزادة:

١- الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية.

٢- د. علي الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس.

٣- د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام.

٤- شاكر مصطفى، صلاح الدين الفارس المجاهد، والملك الزاهد المفترى عليه.

الأضرحة في مصر...
مصلحة سياسية ودور اجتماعي

أسامة الهتيمي(*)– خاص بالراصد

يصاب المرء بحيرة شديدة كون أن المدافعين عن التصوف والباحثين في نشأته يتحدثون أن التصوف في أصله منهج سلوك يدفع إلى البحث عن الحقيقة والسعادة خصوصا وسط هذا الركام الغليظ من المذاهب المادية والعبثية التي يفقد فيها الإنسان آدميته وشخصيته والتي صارت هي آفات النفوس التي يركز التصوف على محاربتها كما أنه يشتمل على الكثير من الآداب والأخلاق والتزام الأمر والنهي الشرعيين وإحياء ما اندثر من السنة لدى العامة ومعالجة ما خفي من علل القلوب.

وهو أمر يمكن أن نسلم بصحته جدلا إذا كان محور نقاشنا حول ما اصطلح على تسميته حديثا بالتصوف السني أو ما أطلق عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بالتصوف الشرعي الذي يتقيد أصحابه بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة دون الشطط الذي أصاب الكثير من مدّعي التصوف حيث أضافوا للإسلام ما ليس منه أو فيه تأثرا بغيره من عقائد الهنود واليهود والنصارى وفلسفات الآخرين، فكان من بين هؤلاء المدعين مَن ارتبط بالقبور والأضرحة وما أسموه بموالد الأولياء وكان منهم مَن تمذهب بفلسفات باطنية أفرزت نظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وكان منهم من اعتبره – أي التصوف المزعوم - طريقا ومسلكا لاستباحة ما حرم الله في حين اعتبر أن تلك الاستباحات ليست إلا شكلا من أشكال ذكر الله عز وجل – تعالى الله عن ذلك - الأمر الذي جاء بالمخالفة التامة مع منهج رواد التصوف السني من أمثال الحسن البصري الذي جدد للناس أمور دينهم وأحيى في نفوسهم الخوف من الحساب ودفعهم للتقيد بما كان عليه السلف الصالح أو مِن أمثال الجنيد الذي قالت عنه والدة أحد الخلفاء العباسيين وهي ترى سلطانه على جماهير بغداد: هذا هو الخليفة، لا ابني، هذا هو الملك الذي يجلس على القلوب والعقول.

لقد كان الزهد من مثل هؤلاء الرجال ليس فقرا مذلا ولا ضعفا مميتا ولا قناعة خانعة، بل إنه ترفّع وإباء وعزة وعزيمة مما يثمر الصلاح والتقوى اللذان يجعلان الدنيا في يد الإنسان لا في قلبه، ويشعرانه بأنه هو من يملك المال وليس المال من يتملكه وأنه بإمكانه أن يسخر الجاه والمنصب للخير والحق لا العكس مما ينجم عنه مختلف الشرور التي سمعنا عنها في التاريخ وما زالت.

هذا هو الحال الذي كان عليه الصوفية الحقيقيون بما يحمل من معنى النظر للدنيا على أنها معبر للآخرة فـ «التصوف ليس رسوما ولا علوما ولكنه أخلاق» أما ما كان عليه وما زال

(*) كاتب مصري.

هـؤلاء المـدعون للتـصوف عـبر حقـب التـاريخ المختلفـة لا علاقـة لـه بهـذا الفهـم وإنمـا هـو أمـر آخـر، كـل مـا يربطـه بالإسـلام اسـتغلال اسمـه وادعـاءات ومـزاعم تم توظيفهـا بـشكل جيـد ووفـق خطـة اسـتهدفت الوصـول لنتـائج اختلفـت بحـسب الزمـان والمكـان كـان أسـوأها تاريخيـا هـو ذلـك التـصوف الفلـسفي الـذي قـاده أمثـال الحـلاج وابـن عربـي وغيرهمـا ممـن اسـتخدموا نـصوص مبهمـة وتـأويلات خادعـة كانـت تـسعى بالدرجـة الأولى إلى ترسـيخ مـذهب الباطنيـة وأفكـار الـسبئية الـذين كـانوا سـباقين إلى القـول بالحلوليـة ووحـدة الوجـود وغيرهـا مـن النظريـات المفسدة للعقيدة.

لكـن وللموضـوعية لم يكـن هـذا التوظيـف للتـصوف المزعـوم محـصورا علـى الـروافض فحـسب بـل إنـه أيـضا ووفـق ظـروف خاصـة خـضع للتوظيـف والاسـتغلال الـسياسي والاجتمـاعي والاقتـصادي للحكـام وبعـض الفئـات الاجتماعيـة وأصحاب الحرف والمهن.

الصوفية والقبور

وجـاءت الأضـرحة والقبـور كواحـدة مـن أهـم مـا اعتمـد عليـه مـدعو التـصوف لترسـيخ أقـدامهم ونـشر أفكـارهم وتحقيـق مـآربهم، ربمـا بـدأ اللجـوء للقبـور في بـادئ الأمـر كزلّـة مـن زلات الـصوفية حيـث توهمـوا أنهـا أفـضل الأمـاكن لاعتـزال النـاس والنـأي بـالنفس عـن الـدنيا بمتاعهـا وملـذاتها وهـو مـا كـان يمكـن استـساغته رغـم مخالفتـه للتوجيهـات الإسـلامية الـتي رفـضت الرهبانيـة بـشكل صـريح في قولـه تعـالى ﴿ثـم قفّينـا علـى آثـارهم برسـلنا وقفينـا بعيـسى ابـن مـريم وآتينـاه الإنجيـل وجعلنـا في قلـوب الـذين اتبعـوه رأفـة ورحمـة ورهبانيـة ابتـدعوها مـا كتبناهـا علـيهم إلا ابتغـاء رضـوان الله فمـا رعوهـا حـق رعايتهـا فآتينـا الـذين آمنـوا مـنهم أجـرهم وكـثير منهم فاسقون﴾ [الحديد: ٢٧].

كمـا دفـع الإسـلام بأتباعـه إلى مخالطـة النـاس حيـث اعتـبر أن المـسلم المخـالِط للنـاس والـصابر علـى أذاهـم أفـضل مـن الـذي لا يخـالط النـاس فعـن ابْـنِ عُمَـرَ قَـالَ: قَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «الْمُـؤْمِنُ الَّـذِي يُخَـالِطُ النَّـاسَ وَيَـصْبِرُ عَلَـى أَذَاهُـمْ، خَيْـرٌ مِـنَ الْمُؤْمِنِ الَّـذِي لا يُخَـالِطُ النَّـاسَ، وَلا يَـصْبِرُ عَلَـى أَذَاهُـمْ» أَخْرَجَـهُ ابْـنُ مَاجَهْ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

كمـا حـث ودعـا إلى العمـل والتكـسب الحـلال رافـضا أن ينتظـر المـرء صـدقات الآخـرين، يقـول الرسـول ﷺ: «لأَنْ يَأْخُـذَ أَحَـدُكُمْ حَـبْلا، فَيَـأْتِي بِحُزْمَـةٍ مِـنْ حَطَـبٍ فَيَبِيعَهَـا، خَيْـرٌ لَـهُ مِـنْ أَنْ يَـسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ».

لكـن القبـور شـيئا فـشيئا أصـبحت الرهـان الأكـبر والخيـار الأفـضل لمـدعي التـصوف فتحولـت إلى أضـرحة وقبـاب تزينـت بالزينـات واكتـست بأفـضل الأقمـشة وأغلاهـا وتعطـرت بـأحلى العطـور وأثمنهـا بـل وارتـبط كـل نـشاط هـؤلاء بالمقـام فيهـا والائتنـاس بهـا حتـى تحولـت زيارتهـا والـدعاء عنـدها والاحتفـال بموالـد أصـحابها أهـم فاعلياتهـا وغايـة مقـصودها علـى المـستوى الظـاهري وإن كـان وراء الستار ما وراءه.

الأضرحة في مصر

وفـق بعـض الدراسـات الاجتماعيـة المتخصـصة فـإن عـدد الأضـرحة والمقامـات في مـصر يبلـغ نحـو ٦ آلاف ضـريح وهـو عـدد يفـوق عـدد القـرى والمدن المـصرية، غـير أن مـا اشـتهر مـن هـذه الأضـرحة نحـو ١٠٠٠ ضـريح، يوجـد منهـا في العاصـمة «القـاهرة» وحـدها ٢٩٤ ضـريحاً مـن أشـهرها «الحـسين – الـسيدة زينـب – والـسيدة نفيـسة»، فيمـا تتـوزع البقيـة علـى بـاقي المـدن والمحافظـات، فعلـى سـبيل المثـال يوجـد في مركـز فـوّة – محافظـة كفـر الـشيخ - ٨١ ضـريحاً وفي مركـز طلخـا – محافظـة الدقهليـة - ٥٤ وفي مركـز دسـوق ٨٤ وفي مركـز تـلا ١٣٣ كمـا يوجـد في أسـوان – أقـصى جنـوب مـصر - أحـد المـشاهد يسمى مشهد «السبعة وسبعين ولياً».

كمـا أنـه مـن المعلـوم أنـه لا يوجـد قريـة في مـصر إلا وبهـا ضـريح أو اثنـان أو ثلاثـة أو أربعـة أو مـا يزيـد

عـن ذلـك أنـشئ لأغلبهـا مقامـات أو شـواهد أو قبـاب، ومـن بينهـا مـا هـو مـشهور ومعـروف يرتحـل إليهـا أهـل القـرى والمدن المجـاورة ومنهـا مـا هـو مقـصور العلـم بـه علـى أهـل هـذه القريـة بـل إن هنـاك أضـرحة خاصـة بـبعض العـائلات أقيمـت مقاماتهـا بـين بيـوتهم ونـسبت إلـيهم فكانـت مـصدر مباهـاة وافتخـار حيـث تتكفـل هـذه العائلـة أو تلـك بالـذبائح ومظـاهر الاحتفـالات الخاصة بيوم مولده.

والغريـب أن أغلـب هـذه الأضـرحة لا يُعلـم سـوى الاسـم الأول لـصاحبها كـأن يقـال: هـذا ضـريح الـشيخ فـلان، وهـو الاسـم الـذي توارثـه الأجيـال جيـل بعـد جيـل دون التـدقيق، الأمـر الـذي فـتح البـاب علـى مـصراعيه أمـام مـن تـسول لهـم أنفـسهم اسـتغلال جهـل النـاس وسـذاجتهم وهـو مـا أشـار إليـه بالفعـل عـدد مـن الدراسـات الـتي أكـدت أن مـن بـين الأضـرحة في مـصر مـا هـو وهمـي لـيس لـه صـاحب حقيقـي وأن إنـشاءه لم يكـن سـوى محاولـة مـن الـبعض للنـصب والاحتيـال علـى النـاس الـذين اعتـادوا زيـارة القبـور والنـذر لهـا ومـن ذلـك مـا أشـار إليـه الـدكتور شـحاتة صـيام أسـتاذ الاجتمـاع الـسياسي في كتابـه «الطهـر والكرامـات: قداسـة الأوليـاء» والـذي تحـدث عـن أن الأضـرحة الوهميـة شـهدت ارتفاعـا قياسـيا في أعـدادها ربمـا فـاق مـا هـو مـسجل منهـا بـشكل رسمـي وأن أغلبهـا تحـول لأداة للنـصب والثـراء الـسريع نتيجـة سـيطرة مجهـولين علـى صـناديق النـذور الـتي تـدرّ سنويًّا ما يقرب من ١٠ مليارات جنيه مصري.

الدور السياسي

منـذ أن أحـدث الفـاطميون في القـرن الرابـع الهجـري بدعـة الموالـد في مـصر ولم تفتـأ تـصدر فتـاوى العلمـاء الأجـلاء الـتي تكـشف عـن عـوار هـذه البدعـة وحرمـة مـا يكـون فيهـا حتـى أن بعـضهم قـد أبطلـها غـير أنـه تم إعادتهـا في خلافـة الآمـر بأحكـام الله عـام ٥٢٤هـ لتكـون ومنـذ ذلـك التـاريخ كلمـة «مولـد» رمـزا علـى الفوضـى والمـساخر أدرك ذلـك الرافـضون للموالـد والمؤيـدون أيـضا، فهـا هـو الـدكتور زكـي مبـارك يقـول عنهـا مـدافعا: «وقـد اتفـق النـاس علـى أن الموالـد يكثـر فيهـا الـرجس والـدنس والفنـون وهـذا يؤيـد مـا نقـول بـه: فالمفـاتن والفـواحش لا تـنهض إلا حيـث تـنهض الحيـاة والهدى لا يعلـن عـن الحيـاة كمـا يعلـن الـضلال»، مـن كتابـه التـصوف الإسـلامي في الأدب والأخـلاق، وبعيـدا عـن مناقـشة مغالطـة الـدكتور مبـارك في الـربط بـين نهـضة الحيـاة وبـين المفـاتن فـذلك قـول يـثير العجـب فعـلا فـإن الـنص اعـتراف منـه بمـا هـي عليـه الموالـد مـن رجـس ودنـس وفق تعبيره.

بـل إن الـدكتور عبـد الحلـيم محمـود الـذي ربمـا لم يكـن يحـرم الموالـد يقـول عنهـا في فتـواه: «أمـا مـا يحـدث في الموالـد اليوم مـن لهـو وصـرف عـن طاعـة الله وطاعـة رسـوله ومقارفـة للمعاصـي إلا قلـيلا مـن المحـافظين علـى حرمـات دينـهم فلـم يكـن لـه وجـود فيمـا مـضى»، ثـم يـستطرد فيقـول: «والموالـد بحاجـة إلى رعايـة وتقـويم وفـرض عقوبـات علـى كـل مـستهتر بدينه لا يرعى لله ولا لرسوله حرمة».

ولعلنـا نكتفـي في هـذا الـصدد باستـشهادنا بهـذه الآراء الـتي صـدرت عـن مؤيـدين أو غـير محـرمين للموالـد والـذين رأوا فيهـا مـا رأوا مـن ارتكـاب للمحرمـات والفـواحش، الأمـر الـذي دفـع بمـشيخة عمـوم الطـرق الـصوفية نفـسها إلى أن تعـترف بـأن الموالـد بـؤرة الانحـراف والرذائـل ومـن ثـم فإنهـا قامـت بـإبلاغ الجهـات الحكوميـة بـضرورة حمايـة المجتمـع مـن ذلـك وكـان ممـا جـاء عنهـا قولهـا: «تنقيـة التـصوف مـن العـادات والتقاليـد الدخيلـة: رأت المـشيخة العامـة أن الجمـود العلمـي والفكـري الـذي سـاد العهـود الماضـية قـد أدخـل علـى التـصوف واحتفالاتـه ومواكبـه تقاليـد وعـادات وطقوسـا لا تتفـق مـع جلالـه وكمالـه ورسـالته».. غـير أن اسـتجابة الحكومـة لم تـتم بـل ظلـت أوضـاع الموالـد كمـا هـي عليـه منـذ إقامتهـا بـل إنهـا شـهدت ترديـا في بعـض الحـالات الأمـر الـذي أثـار - ومـا زال - تعجـب الكـثيرين مـن المتـابعين الـذين لم يفتـأوا يتـساءلون .. كيـف للدولـة المـصرية الحديثـة وعـبر عهـود سياسـية متباينـة أن تلتـزم الـصمت إزاء مـا يحـدث في الموالـد مـن مهـاترات

عقائدية وأخلاقية لم تعد خافية على القاصي والداني حيث يتم تداولها عبر الفضائيات ومواقع الإنترنت بل وتقوم عبر أجهزتها الأمنية بتوفير الحماية لهذه الاحتفالات؟ بل كيف لهذه الدولة أن تسمح للبعض ممن اعتبروا أنفسهم أوصياء على هذه الأضرحة بأن يتقاسموا جزءا من الأموال المتحصلة من صناديق التبرعات والنذور وهي تعلم أنها إنما خرجت من جيوب متبرعيها لأغراض أخرى كما اعترفت الأوقاف أن أكثر من ٥٠٪ من هذه الأضرحة وهمية؟

الحقيقة أن الإجابة على هذه التساؤلات وغيرها تتحصر في كلمة واحدة هي «السياسة» حيث كانت الموالد وزيارة الأضرحة على ما هي عليه جزءا من التوظيف السياسي الذي اتبعته الحكومات على مر العصور في التعاطي مع شعوبها كونها تدرك أن قطاعا شعبيا ليس بالقليل قد ضربه الجهل بتعاليم دينه الحقيقية والصحيحة لاعتبارات اقتصادية وسياسية فانساق خلف ما ظن أنه يمثل التدين وذلك باللجوء إلى ما اصطلحوا على تسميتهم بأولياء الله الصالحين الذين لم يروهم ولم يعاصروهم فكانت قبورهم وقباب أضرحتهم هي الملجأ لهم يبثون لها شكواهم ويعبرون بالقرب منها ومن خلال أدعيتهم ومناجاتهم لها وطوافهم حولها عما يجيش في نفوسهم من أوهام وأحلام فيرتكنون إلى ذلك وينفضون عن أنفسهم العزيمة والإصرار على تحقيق ما يصبون إليه وهو ما يصب في نهاية الأمر في صالح أي حكومة مستبدة حيث تأمن جانبهم بعد أن أيقنت أن مثل هؤلاء لا يمكن لهم أن يلجأوا إلى ما يعكر صفو الحكم والحاكم وأنه ليس لهم أن يثيروا القلاقل والتوترات.

كما تمثل في المقابل هذه القبور للبعض ممن غلبهم الظلم والقهر والاستبداد متنفسا يبثون إليه ما لا يمكن أن يبوحوا به على أرض الواقع.

وهنا يجب أن نلفت النظر إلى أنه لا يمكن اعتبار هذا الموقف السلطوي المنحاز للصوفية والمتصوفة انحيازا للدين والتدين فذلك مما يجافي الحقيقة إذ أن ذلك جاء على حساب المؤسسات الدينية بما فيها المؤسسة الرسمية المتمثلة في الأزهر والأوقاف والتي كان في تأسيس «مشيخة الطرق الصوفية» أداة ضغط استخدمها الحاكم لإضعافها، الأمر الذي نعتقد أنه السبب الذي دفع بعض مشايخ وعلماء الأزهر إلى التودد إلى هذا المجلس والطرق الصوفية حتى لا يحدث اصطدام بينهما خاصة وأن الطرق الصوفية أكثر تنظيما وترابطا مقارنة بالأزهر، الأمر الذي أوقع الكثير من مشايخ ودعاة الأزهر في حرج تمثل في قبولهم ولو على مضض في البداية للكثير من سلوك وتصرفات الصوفية المخالفين أو على أقل تقدير غضّ الطرف عنها دون إثارتها أو المطالبة بوقفها بل والسكوت على ذلك، وفق ما سجل الأستاذ محمد رشيد رضا حيث بين «أن الذي دفع العلماء إلى السكوت عن هذه الأمور خوفهم من الوقوع في قضية إنكار الكرامات أو الاعتراض على الأولياء الذي يخشى معه أن يلحقوا بهم الأذى والضرر»، فيما يورد أحد الباحثين – د/ عبد الكريم دهينة في كتابه الأضرحة وشرك الاعتقاد – أنه ليس أدلّ على ذلك من أنه «في أيام حكم السلطان المملوكي جقمق قيل لأحد العلماء أن يفتي بإبطال مولد البدوي لما يحدث فيه من زنا وفسق ولواط وتجارة مخدرات وما يشيعه الصوفية من أن البدوي سيشفع لزوار مولده، فأبى هذا العالم أن يفتي، قائلاً ما معناه: إن البدوي ذو بطش شديد».

كذلك لا يمكن أن نتجاهل أن الحكومات كانت تدعم الطرق الصوفية حتى تكون ظهيرا شعبيا لها يدعمها في الانتخابات والمواقف السياسية، الأمر الذي وصل إلى حد أن تكون هذه الطرق غير متعاطفة مع الإرادة الشعبية بأغلبيتها، وهو مثلا ما شهدناه في ثورة يناير المصرية حيث لم يحظ الفعل الثوري بأي تعاطف صوفي وغاية ما حدث أن بعض الشباب الصوفي هو من سارع للّحاق بركب الثورة فأسس تنظيما شبابيا «ائتلاف الشباب الصوفي» للتأكيد على أنهم شاركوا في

الفاعليات الثورية.

في هذا السياق ليس عجبا أن تولي الدولة اهتماما شديدا بالأضرحة والقباب الخاصة بالمتصوفة بل وتوفر لها حماية أمنية شديدة تحول بينها وبين بعض الاتجاهات الإسلامية التي ترى عدم مشروعية الصلاة في المساجد التي تضم بين جدرانها قبورا، وترفض الكثير مما يحدث في داخلها من طواف وتوسلات ودعاء لأموات لا يملكون نفعا ولا ضرا ولا يستسيغون على الإطلاق الدعوى بأن هؤلاء – أي أصحاب القبور – يمكن أن يتوسطوا لله عز وجل حتى يستجيب لأدعية زائري هذه المقامات ومن ثم تتعاطى بشكل حاسم وقوي يصل إلى حد الاعتقال والتوصيف بالإرهاب في حال حاول أحد عناصر هذه الاتجاه توجيه الآخرين للإقلاع عن هذا السلوك المنافي للتعاليم الإسلامية ليكون في ذلك بكل تأكيد تشجيعا ودفعا لتنامي التيار الصوفي أو ما يحلو لنا أن نسميه «التصوف المزعوم».

ولعل ما ذهبنا إليه هو ما أدركته الإدارة الغربية بشكل عام والأمريكية بشكل خاص والذي اتضح جليا في أغلب الدراسات الصادرة عن مراكز دراسات وأبحاث، والتي أوصت بدعم التيارات الصوفية في العالم العربي والإسلامي ماديا وسياسيا لأن هذه التيارات تعبر عما أطلقوا عليه بالإسلام المعتدل، الذي يمكنه التعايش مع الآخر السياسي والفكري والمذهبي فضلا عن قدرته على الوقوف والصمود أمام غيره من بقية المدارس الإسلامية وهو ما يفسر لنا احتضان أمريكا للكثير من المؤتمرات والندوات الخاصة بقضايا التصوف فضلا عن قبولها استضافة بعض القيادات الفكرية والروحية للطرق الصوفية في العالمين العربي والإسلامي للإقامة على أرضها.

الدور الاجتماعي

لعبت الأضرحة ولم تزل دورا اجتماعيا ذا أهمية كبيرة في أغلب بلدان العالم العربي والإسلامي لدرجة أن التعلق بها شكل ظاهرة وثقافة مجتمعية لم تعد تثير أي استغراب أو تعجب بل إن الكثير من مضامينها بات مألوفا حتى بين بعض الفئات التي توصف بالمتعلمة والمثقفة بل إن من بينهم من حصل على درجة الدكتوراة في فروع العلم المختلفة وهو ما يشير إلى مدى تغلغل مثل هذا الفكر في عقول وأذهان هذه الفئات حيث توارثوا العديد من العادات والتقاليد التي تحولت لدى بعضهم إلى مسلمات.

والأسوأ في القضية أن البعض من هؤلاء يبرر سلوكه استنادا إلى تأصيل شرعي للمسألة اعتمد فيه أصحابه على تأويلات تتعارض مع نقاء عقيدة التوحيد الإسلامي في تجاهل إلى أن الدوافع الحقيقية وراء هذا المنهج نفسية وتقليد مجتمعي.

وتتعدد الدوافع المجتمعية وراء استمرار الاحتفال بأضرحة وقبور من يوصفون بأولياء الله الصالحين ومنها على سبيل المثال:

١- يتخذها البعض أماكن للعلاج من بعض الأمراض النفسية التي غالبا ما يبررها البعض بأنها نتيجة أعمال سحرية أجراها بعض الحاقدين والحاسدين على المريض والتي لا يمكن التخلص منها إلا بزيارة قبر من قبور الأولياء!

وبالطبع مثل هذا السلوك انعكاس للشعور بالعجز والفشل في علاج هؤلاء المرضى إذ أن بعض الأمراض النفسية مزمنة وتحتاج إلى استمرار تعاطي أدوية يحددها الأطباء ولا يمكن الاستغناء عنها وهو ما يمثل عبئا ماديا ونفسيا على أهل المريض الذين يحاولون أن يروجوا ويقنعوا أنفسهم ومَن حولهم بأن ما أصاب مريضهم بفعل قوى خارجية.

٢- تعاني المجتمعات العربية والإسلامية من تفاقم لمشكلة العنوسة وهي المشكلة التي ربما لا تشعر بفداحتها المجتمعات غير المتدينة كون المسألة الأخلاقية المتعلقة بعلاقات الرجال والنساء غير ذات أهمية.. ونظرا للشعور بخطورة أن تتجاوز الفتاة مرحلة سنية معينة لا تتزوج خلالها فإن البعض يلجأ إلى قبور الأولياء للاستعانة بكراماتهم – وفق تصورهم – في أن تجد فتاتهم «ابن الحلال».

٣- كأغلب المجتمعات واستجابة للغريزة

البشرية يحرص الوالدان على أن ينجبا أطفالا غير أنه وعندما يقدر الله لهما عدم الإنجاب يلجأ وبكل أسف عدد من النساء إلى زيارة أضرحة بعينها فيطفن بها ويقدمن لها النذور اعتقادا منهن بأن لأصحاب هذه القبور كرامات ستجعلهن حوامل .

وهو الاعتقاد الذي ترسخ نتيجة مصادفات قدرية حيث ذهبت بعض النسوة لهذه الأضرحة ثم حملن.

٤- الموالد وزيارة الأضرحة تمثل لأصحاب بعض المهن والحرف مصدرا أساسيا للدخل لا يمكن الاستغناء عنه بل إن حياتهم كلها قامت عليه بالأساس ومن ثم فإن علاقة هؤلاء بالموالد علاقة مركبة فهي ذات بعد يتعلق بمدى التقصير الحكومي بحق هؤلاء إذ أنها لم تسعَ لحل معضلة إيجاد بدائل لهم تعوضهم عن مثل هذه المهن أو الحِرف كما أن الكثير منهم وصل لمرحلة سنية لم يعد يمكن خلالها اكتساب مهارات أخرى يمكن توظيفها في مجال آخر للمساعدة على القيام بأعباء المعيشة بل إن معظمهم يعدم وجود سكن خاص حيث ارتبطت حياتهم بعربات وخيام متنقلة تتنقل من بلد لبلد ومن مولد لمولد ومن أمثال هؤلاء «أصحاب الأرجوحات – القائمون على طاولات النيشان – ممثلو الأرجوز – السيرك – الحواة - الراقصون والراقصات .. وغيرهم» من صانعي اللهو الذي يقدم في الموالد.

وهؤلاء بطبيعة الحال يحرصون جيدا على أن يقدموا بضاعتهم بأسعار زهيدة تتناسب مع الحالة المادية للأغلبية الشعبية وهو ما يكون قوة دفع للكثيرين من الشرائح المجتمعية للمشاركة في الموالد والاستمتاع بأشكال اللهو التي تتناسب مع قدراتهم المادية، الأمر الذي يعطي زخما وحيوية لهذه الموالد.

٥- ارتبط زمن الكثير من «الموالد» بمواعيد الحصاد لبعض المحاصيل في بعض المدن المصرية فأصبحت هذه الموالد أهم مصدر لتسويق هذه المحاصيل فيما ربط تجار هذه المحاصيل مواعيد شرائها بهذه التوقيتات أيضا فأصبحت لكلا الطرفين عادة لا يمكن لأيهما أن يحيد عنها وهو ما ساهم بشكل أو بآخر في الترويج لاستمرار إقامة الموالد خاصة وأن ذلك كله ارتبط لدى هذه الفئات أيضا بمواعيد إتمام الزواج وغيرها من المناسبات الاجتماعية.

والخلاصة أن «الموالد» وزيارة القبور بما تحمله من مخالفات أقر بها المؤيدون والمعارضون على السواء إشكالية ذات أبعاد متعددة تؤكد أن مهمة مواجهتها ومحاولة تطهيرها كمرحلة أولية أمر صعب للغاية يحتاج إلى إجراءات متعددة ليست محصورة في تكثيف العمل الدعوي والتوعوي بمخاطرها على المستوى الأخلاقي والسلوكي وفسادها على المستوى الديني والعقدي فحسب لكنها أيضا تحتاج من قبل لإرادة سياسية تتنزه عن مصالحها الضيقة وتعي مدى خطورة مثل هذه الظواهر ذلك أنها تجذر للانسياق خلف الخرافات والخزعبلات وتنأى بالمجتمع - أي مجتمع - بعيدا عن التحضر والعلم ومن قبلهما الإيمان بقدر الله وقدرته عز وجل.

تجنيد الفتاة بين دعاوى المساواة وعسكرة الأنوثة

فاطمة عبد الرءوف[*] – خاص بالراصد

تزايدت في الآونة الأخيرة أصوات نسائية عديدة تطالب بتجنيد النساء في الجيش المصري من أجل استكمال أطروحة المساواة التامة بين النساء والرجال التي لا ينقصها في زعمهم إلا الاشتراك في ضريبة الدم عن طريق تجنيد الإناث كما يجند الذكور.

وكأن كل مشكلات النساء قد انتهت ولم

(*) كاتبة مصرية.

يبقَ إلا المساواة في التجنيد حتى وصلت عدد صفحات الفيس بوك التي تدعو لحملة تجنيد الفتيات لمائتي صفحة، وتبنى المجلس القومي للمرأة في مصر هذه الحملة، وكانت المستشارة تهاني الجبالي قد أشادت بهذه الحملة وأيدتها وكشفت النقاب عن أن النسويات طالبن أثناء صياغة الدستور المصري الأخير بوضع مادة تلزم الفتيات بالتجنيد الإجباري عند بلوغهن سن الـ ١٨، ولما لم يتم إقرار هذه المادة فإن البديل هو جعل التجنيد للإناث اختياريا كمرحلة أولى على أن يتم تعديل قانون الخدمة العسكرية حتى يسمح باشتراك الإناث في عملية التجنيد وبعد ذلك يكون الرأي العام مستعدا لقبول التجنيد الإجباري للفتيات.

أسباب الحملة

ولعل السؤال الملح الذي يطرح نفسه: ما هي الأسباب الدافعة لطرح هذه القضية على الرأي العام ولماذا لاقت هذا القبول والانتشار حتى أن إحدى الفتيات ذهبت لمنطقة التجنيد الرئيسة متقدمة بأوراقها للتجنيد وظلت صامدة أمام موجات الاستنكار والسخرية من الشباب حتى قابلت مسئولا عسكريا كبيرا أوضح لها أن قانون الخدمة العسكرية لا يسمح بتقدم الإناث، وأن عليها أن تلجأ للقضاء وهو ما قامت به الفتاة بالفعل حيث قدمت طعنا في دستورية قانون الخدمة العسكرية لأنه يتعارض مع المادة ١١ في الدستور والتي تنص على أنه (تكفل الدولة تحقيق المساواة بين المرأة والرجل في جميع الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفقا لأحكام الدستور).

كما أنه يتعارض مع اتفاقية إلغاء كافة أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو) والتي وقعت مصر عليها حيث تنص المادة ٩٣ من الدستور على (التزام الدولة بالاتفاقيات والعهود والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان التي تصدق عليها مصر، وتصبح لها قوة القانون بعد نشرها وفقاً للأوضاع المقررة).

في اعتقادي أنه ونتيجة تعقيدات سياسية واجتماعية عديدة وخطة إعلامية ممنهجة ومنظمة للإلحاح على فكرة المساواة الكاملة والتماثل بين الرجل والمرأة ومن ثم وجوب التماثل في الأدوار التي يلعبها الذكور والإناث، جرت الدعوة لتجنيد الإناث في صفوف القوات المسلحة ولاقت قدرا من القبول لدى بعض الفتيات.

مرحلية الخطة

وعلى طريقة الفكر النسوي الذي يتبع السياسة التدريجية في طرح أفكاره والمرحلية في تنفيذ خططه فإن فريقا من الداعمات لحملة تجنيد الإناث وحتى لا يجابه بالرفض المجتمعي القاطع وضع شروطا لتجميل هذه الحملة ومنها:

- أن يكون التجنيد اختياريا بين الإناث.
- أن تكون معسكرات التدريب خاصة بالإناث فلا اختلاط في المعسكرات.
- أن المجندات لن يكنّ في الخطوط الأمامية للقتال وإنما سيقتصر دورهن على الخدمات داخل الجيش.

فإذا تأملنا هذه الأطروحة سنجد أنها تشتمل على حالة خداع ممنهجة ومقصودة فمن المعروف أن النساء يتواجدن في الكثير من المواقع الخدمية في الجيش بالفعل كالتمريض في المستشفيات العسكرية مثلا وأن خريجات الجامعة بعد اجتياز بعض الدورات التدريبية يعملن كأمن نسائي في العديد من المواقع.

وبالتالي فلا معنى للمطالبة بما هو موجود أصلا، أما كون التجنيد اختياريا للإناث فهو يتناقض مع مبدأ المساواة الذي أقاموا عليه قضيهم حيث أن التجنيد إجباري للذكور.

أما مسألة المعسكرات المنفصلة فهي أمر ليس بالسهل على الإطلاق حيث يرتبط ذلك بخطط عسكرية وميزانية اقتصادية، ثم ماذا عن القادة داخل هذه المعسكرات هل سيكونون من الإناث أيضا؟

كما أن الخطاب القادم من النسويات متناقض، فالبعض يطالب بالمساواة التامة وحمل

السلاح وتأمين الحدود، والبعض يظهر بصورة المعتدل، مما يؤكد أن ثمة خداعا للمجتمع يتم الترويج له بمثل هذه البلبلة، فإذا كان الرفض بالغا نبدأ ببعض الأفكار المخففة حتى يتم القبول بها، وبعد ذلك وتدريجيا نصل للتماثل الكامل وهو الهدف الأصلي الذي تم التخطيط له.

طبيعة المرأة

لعله لا توجد كلمة صبت عليها النسويات الغضب كهذه الكلمة «الطبيعة». إنهن يرفضن القول بأن هناك طبيعة خاصة بالمرأة ويجعلن من كلمات سيمون دي بوفوار (المرأة لا تولد امرأة وإنما تصبح كذلك) كما القانون الإلهي الذي لا يتطرق إليه الشك ولا يأتيه الباطل أما الأبحاث العلمية الرصينة التي تؤكد الاختلافات الفسيولوجية فيتم تجاهلها تماما[1].

وبعيدا عن الأبحاث العلمية فهؤلاء النسويات ينكرن كل النتائج المترتبة على الفروق الفسيولوجية الواضحة وضوح الشمس ويتمنين أن تكون هناك طريقة ما لنفي الفروق الفسيولوجية من الأساس ويستخدمن في ذلك لغة ديماجوجية فظة.

ولعل الفروق الفسيولوجية الواضحة في البنية الجسمية أو الناتجة عن الهرمونات الجنسية لا تظهر نتائجها في شيء أوضح من المجهود البدني المرتبط بأعمال القتال.

إننا إزاء واحد من أمرين، إما فتاة راضية عن طبيعتها الأنثوية تحب الزينة والتزين وتحافظ على رقتها وجمالها وتخاف على بشرتها من الشمس وتميل للاسترخاء إذا ألمت بها أيام الحيض، فهذه الفتاة اذا تم تقنين التجنيد في صورته النهائية الإلزامية تكون واقعة تحت نير ظلم بيّن يعتدي على خصوصيتها وطبيعتها المتسقة معها، ونكون أمام حالة عنف صارخة ضدها وهي الأغلبية بين بنات جنسها (النسويات للأسف لا يدافعن عن الأغلبية المطلقة من النساء بل العكس تماما هو الصحيح).

الأمر الثاني فتاة متمردة على هذه الطبيعة، إما لقناعات فكرية أو اضطرابات عاطفية أو نفسية، فهذه الفتاة ستقبل بفكرة التجنيد من حيث المبدأ، ولكن ستواجه بعدد من الأمور عليها أن تدركها قبل القبول بهذه الأطروحة ومن ذلك:

ـ المشقة الجسدية البالغة حيث أن الكلام على المساواة في ضريبة الدم سهل على المستوى النظري أما الواقع فأمره يختلف.

ـ التحرشات الناتجة من الاختلاط، فمن غير المعقول أنه سيكون ثمة فصل بين الجنسين في عمليات القتال وفي هذا الصدد لابد لهؤلاء الفتيات أن يتابعن الجرائم والانتهاكات التي وقعت للمجندات سابقا، حيث تشير التقارير أن ٣٠٪ من مجندات الجيش الأمريكي وقعن ضحية للتحرش والاغتصاب، وهذه النسبة ارتفعت لنحو ٤٠٪ للمقاتلات على الخطوط الساخنة كما في العراق[2].

الإسلام والجهاد

الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، ومعناه في اللغة: استفراغ الجهد والبذل والمشقة، أما معناه الاصطلاحي الخاص فهو القتال لإعلاء كلمة اللّه.

والجهاد قد يكون بالنفس أو بالمال، ومن حق النساء بل من واجبهن الجهاد بالمال كما حدث في غزوة تبوك.

والجهاد بالنفس قد يكون فرض عين وقد يكون فرض كفاية، فهو فرض عين إذا اجتاح الأعداء أرضنا وأصبح لزاما على كل فرد أن يدفع بنفسه العدو، وعندما يكون الجهاد فرض كفاية تستطيع النساء الاشتراك أيضا في خدمات الجيش، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كان

(١) لمزيد من التفاصيل راجع مقال «الهوية الجنسية للدماغ وتهافت الفكر النسوي» لكاتبة هذه السطور على صفحات الراصد.

(٢) تم عرض تفاصيل بالغة البشاعة في الفيلم الأمريكي التسجيلي «الحرب الخفية» للمخرج كيربي ديك.

رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين بالماء، ويداوين الجرحى.

وفيه أيضاً عن أم عطية الأنصارية قالت: غزوت مع رسول ﷺ سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى.

وفي صحيح البخاري عن الربيع بنت معوذ قالت: كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسقي القوم ونخدمهم، ونردُّ الجرحى والقتلى إلى المدينة. إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة. وعصر الصحابة حافل بمثل هذه الوقائع.

ويجوز للمرأة في هذه الحالة حمل السلاح دفاعاً عن نفسها لو هجم العدو عليها، ففي صحيح مسلم أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً فكان معها، فرآها أبو طلحة فقال يا رسول الله: هذه أم سليم معها خنجر. فقال لها رسول الله ﷺ «ما هذا الخنجر؟» فقالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يضحك.

كانت النساء إذن في العهد النبوي فاعلات نشيطات يشاركن بفاعلية في صور الحياة المختلفة فالأصل أنهن كن حارسات الجبهة الداخلية العميقة، أعني البيت، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيَّةِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، أَنَّهَا أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي وَافِدَةُ النِّسَاءِ إِلَيْكَ، وَاعْلَمْ - نَفْسِي لَكَ الْفِدَاءُ - أَمَا إِنَّهُ مَا مِنِ امْرَأَةٍ كَائِنَةٍ فِي شَرْقٍ وَلَا غَرْبٍ سَمِعَتْ بِمَخْرَجِي هَذَا أَوْ لَمْ تَسْمَعْ إِلَّا وَهِيَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي، إِنَّ اللَّهَ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَآمَنَّا بِكَ وَبِإِلَاهِكَ الَّذِي أَرْسَلَكَ، وَإِنَّا مَعْشَرَ النِّسَاءِ مَحْصُورَاتٌ مَقْصُورَاتٌ، قَوَاعِدُ بُيُوتِكُمْ، وَمَقْضَى شَهَوَاتِكُمْ، وَحَامِلَاتُ أَوْلَادِكُمْ، وَإِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الرِّجَالِ فُضِّلْتُمْ عَلَيْنَا بِالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى، وَشُهُودِ الْجَنَائِزِ، وَالْحَجِّ بَعْدَ الْحَجِّ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا أُخْرِجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا وَمُرَابِطًا حَفِظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ، وَغَزَلْنَا لَكُمْ أَثْوَابًا، وَرَبَّيْنَا لَكُمْ أَوْلَادَكُمْ، فَمَا نُشَارِكُكُمْ فِي الْأَجْرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ بِوَجْهِهِ كُلِّهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ سَمِعْتُمْ مَقَالَةَ امْرَأَةٍ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ مَسْأَلَتِهَا فِي أَمْرِ دِينِهَا مِنْ هَذِهِ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا ظَنَنَّا أَنَّ امْرَأَةً تَهْتَدِي إِلَى مِثْلِ هَذَا، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا: «انْصَرِفِي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ، وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِهَا، وَطَلَبَهَا مَرْضَاتِهِ، وَاتِّبَاعَهَا مُوَافَقَتَهُ تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ» قَالَ: فَأَدْبَرَتِ الْمَرْأَةُ وَهِيَ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ اسْتِبْشَارًا) رواه البزار والطبراني.

هذا الحديث وإن ضعفه الألباني إلا أنه يصور بشكل دقيق طبيعة المهام الأساسية الملقاة على عاتق المرأة وأنها كان يشغلها قيمة وتقدير هذه المهام خاصة في مقابل عمل الجهاد الذي وصفته بأنه الأفضل، ولكن المرأة لا تستطيعه في غالب الأحوال لارتباطها بمهام أخرى من جهة ولصعوبته وقسوته من جهة أخرى.

فالأصل أن التشريع الإسلامي المتوافق مع الفطرة لا يلزم المرأة بأعمال القتال غير المتوافقة مع بنيتها الجسدية أو النفسية العاطفية وإنما يلزمها بما تستطيعه وتتقنه فهي:

- الزوجة المحبة التي توفر السكن.
- راعية الأبناء والمعلمة الأولى لهم.
- المديرة المنزلية سواء من الناحية المالية وغير ذلك.
- القائمة بأعمال إنتاجية داخل منزلها.

وهذه هي الأعمال التي طرحتها أسماء بنت يزيد للمرأة والتي إن أتقنت فعلها تساوي الجهاد في سبيل الله والجمع والجماعات والحج بعد الحج لسبب بسيط هو أن تأمين الجبهة الداخلية واستقرارها هو الأساس الذي يبنى عليه أي نشاط خارجي فلو كان نتاج البيت أبناء مشوشين منحرفين فكيف يمكنهم الجهاد؟

أقول: هذا هو الأصل، أن تقر المرأة في بيتها

وتتشغل بأموره وتتقن ذلك ثم تشارك في الحياة العامة بعد ذلك بما تستطيع من جهد أو مال، ولكن تحدث أحيانا أزمات ومحن تمر بها الأمة وأحوال استثنائية لا يصلح معها نمط الحياة الهادىء تماما كما حدث يوم أحد، تحكي عن ذلك واحدة من أبطاله تلك التي قال عنها النبي ﷺ: ومَن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة.

إنها أم عمارة المتفاعلة مع قضايا أمتها منذ أن شهدت بيعة العقبة الثانية تقول: (خرجت أول النهار إلى أحد وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين..

فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إلي الجراح)، فالأصل في الحروب أن تكون النساء في الصفوف الخلفية لخدمة المقاتلين من الجرحى ونحوهم وهو ما كانت تقوم به أم عمارة، وما خرجت لأجله شأنها شأن الكثير من الصحابيات ولكن عندما اشتدت الأزمة وأصبح الرسول ﷺ شبه وحيد وهرب الكثير من الرجال حاربت بنفسها حتى جرحت ونزفت نزفا شديدا.

قراءة واقعية

فإذا قمنا بتنزيل هذا التصور على واقعنا المعاصر سنجد الآتي:

- لدينا شريحة ضخمة من الشباب في سن التجنيد والكثير منهم يتم إعفاؤه أو تأجيل خدمته تمهيدا لإعفائه من الخدمة العسكرية.
- لدينا اتفاقات دولية تلزمنا بعدد محدد من الجنود.
- ليس هناك أي مبرر عقلي أو عسكري ليكون عدد الجيش المحدود من شريحة أضعف جسمانيا إلا إذا كان الهدف المزيد من الإضعاف للجيش.
- ضرورة عمل دورات تدريبية للفتيات في المدارس والجامعات على أعمال التمريض وأعمال الإغاثة في حال الحروب والكوارث.
- في حال قيام حرب حقيقية يتم فتح باب التطوع في المقاومة وتتلقى الفتيات المشاركات دورات أكثر تخصصا حسب الحاجة والدفع بهن في هذه الحالة حسب الحاجة على أن تبقى الخطوط الخلفية هي الأصل ويمكن الاستعانة بهنّ في الأمن الداخلي أيضا.

وأخيرا أقول إنه من العبث والسخف أنه ولأجل الفكر النسوي المريض بوهم التماثل أن نضعف جيشنا بإدخال عناصر أضعف وأرجو ألا تستشهد إحدى المقلدات بتجربة النساء في الجيش الصهيوني حيث من المعروف أن العدد الضئيل للعدو هو أهم أدوات ضعفه لذلك فكل مواطنيه هم جنود في الجيش لأنهم مضطرون لذلك أما نحن فلسنا بحاجة لمزيد من العدد حتى نوهن أنفسنا بمقاتلين أضعف بنية وأقل تحملا أو أن نوهن ميزانيتنا بالإنفاق على مثل هذه النوعية من الجيوش.

مصر و"حزب الله"
كيف ذابت جبال الجليد؟

المعتز بالله محمد(*) - خاص بالراصد

شهدت الفترة الماضية تقاربا ملحوظا ربما لا تزال الكثير من تفاصيله غامضة بين تنظيم «حزب الله» اللبناني الشيعي ونظام الرئيس عبد الفتاح السيسي في مصر. الحديث عن ذلك ربما لا يبدو منطقيا لدى البعض، لعدة أسباب أهمها أن المملكة العربية السعودية هي الداعم الاقتصادي الأكبر للسيسي، لذلك فإن الأخير لن يغامر بضياع هذا الدعم من أجل حزب الله، في وقت تواجه بلاده أزمة اقتصادية عاصفة يحذر محللون من أنها

(*) كاتب مصري.

تشكل تهديدا قويا على استقرار نظامه.

«داعش» والتحالفات الجديدة

لكن الحقيقة أن ظهور تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» وتمدده بهذا الشكل في العراق وسوريا، وتهديده المباشر للمنطقة العربية بما فيها الخليج، قلب جميع الحسابات، وفتح باب التحالفات على مصراعيه لكل أعداء الأمس رغم اختلافاتهم وخلافاتهم المذهبية والسياسية. فعلى سبيل المثال لا الحصر بات العراق ساحة لتعاون عسكري فاضح بين كل من الولايات المتحدة والغرب من جهة، وإيران والمليشيات الشيعية من الجهة الأخرى. وشاركت دول عربية سنية في غارات التحالف الدولي على سوريا ليس لاستهداف مواقع النظام السوري العلوي، بل لدكّ مواقع «الدولة الإسلامية».

زيارات غامضة

هكذا تتغير المواقف سريعا ويعاد رسم التحالفات الدولية في سياسةٍ الثابت الوحيد فيها هو المتغير. لكن حين الحديث عن تقاربٍ بين نظام السيسي وحزب الله، فلا بد أن نتحدث أولا عن علاقة نظام بشار الأسد والسيسي، تلك العلاقة التي اتخذت منحى متصاعدا خلال الفترة الأخيرة، عبرت عنه زيارة عماد الأسد، ابن عم بشار، إلى القاهرة في ديسمبر الماضي، وهي الزيارة التي بُذلت جهود جبارة للتعتيم على دوافعها الحقيقية وأهدافها السياسية.

وبتاريخ ٤ يناير الحالي كشفت شبكة «إرم» الإخبارية نقلا عمّن وصفته بالمصدر السياسي المصري عن لقاءات سرية أجراها عماد الأسد في القاهرة مع عدد من أعضاء الائتلاف الوطني السوري المعارض، لبحث ضرورة فرض حل سياسي على الأزمة والابتعاد عن الحل العسكري، مع وضع عدة طرق لتسويات ترضي الأطراف المتناحرة، والمتفقة في الوقت ذاته على عدم تقسيم سوريا.

الباحث «جوزيف أولمرت» حاول في مقال بموقع «هافينجتون بوست» يحمل عنوان «الأزمة الروسية والعلاقة السورية» البحث في زيارة عماد الأسد لمصر قائلا: «استضافة مصر لوفد سوري بقيادة عماد الأسد (ابن عم الديكتاتور بشار) من أجل رؤية للوصول إلى حل سلمي لا تبعث على الدهشة، لأن الجيش المصري هو عدو جماعة الإخوان المسلمين التي تدعم المعارضة السورية السنية، كما أنها تحظى بدعم أردوغان العدو اللدود للنظام المصري الجديد».

خدمة السيسي للأسد

لكن كراهية الإخوان ليست سر التقارب الوحيد، وهو ما كشفه الصحفي البريطاني «جوناثان ستيل» في مقال، بالموقع البريطاني «ميدل إيست آي» الأحد ٢٨ سبتمبر ٢٠١٤ مؤكدا أن النظام السوري يعول على الرئيس المصري الجديد لبدء الترويج بأن سوريا دولة مدنية تواجه تهديدات من إسلاميين وجهاديين.

وتابع «إنهم يثقون في أن السيسي سيقوم بطرح ذلك الأمر، ليس فقط على صعيد القادة العرب، ولكن لواشنطن أيضا، بالرغم من إدراكه أن مصر تعتمد ماليا على قروض السعودية والخليج، ولن تستطيع بسهولة تحدي مموليها، أو الدفاع عن الأسد علنا».

تطابق مصالح

هكذا إذن ذهبت العلاقة بين الأسد والسيسي لأبعد ما كان يتوقع كثيرون، ليصبح المجال مفتوحا بعد ذلك لفتح صفحة جديدة مع «حزب الله» في لبنان وهو ما تحدثت عنه صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية في تقريرها المنشور بتاريخ ٦ يناير ٢٠١٥ حيث كتب «روعي كايس» محرر الصحيفة للشئون العربية يقول: «الكثير من العداوة بين مصر السُنية والتنظيم الإرهابي الشيعي، بالطبع منذ كشف الخلية الإرهابية اللبنانية التي خططت لتنفيذ تفجيرات في مصر منذ خمس سنوات. لكن على خلفية الصراع ضد داعش ومدّ يد السيسي للأسد، حدث للمرة الأولى منذ سنوات تطابق في مصالح معينة بين القاهرة ونصر الله. فإلى أي مدى يمكن أن يصل ذلك؟».

ووفقا للتقديرات الإسرائيلية فإن جملة أسباب أدت إلى حدوث هذا التقارب على رأسها الحاجة لحل الأزمة في سوريا والحرب على تنظيم الدولة الإسلامية الذي يسيطر على مساحات واسعة في سوريا والعراق. فتجنب السيسي الحديث عن إسقاط نظام الأسد أو عن تدخل عسكري، بل فقط عن حل سياسي جعله محط تقدير وإعجاب من قبل حزب الله والنظام السوري على حد سواء.

النظام المصري كوسيط

التقرير الإسرائيلي الذي حمل عنوان «مصر تتقارب مع حزب الله» مضى يقول: «النظام المصري ورغم المشاكل الكثيرة التي يواجهها، فقد لوحظ خلال الأسابيع الماضية أنه يحاول التدخل في الأزمة السورية، حيث أعلن السيسي عن استعداده لرعاية حوار بين النظام السوري والمعارضة. وخلال الأيام الأخيرة تم استضافة رموز بالمعارضة السورية في القاهرة لبحث سبل حل الأزمة».

وفي الحقيقة وبمجرد الإطاحة بالرئيس محمد مرسي لعب السيسي دورا كبيرا في تقييد حركة المعارضة السورية في بلاده وطرد اللاجئين، وفي المقابل سمح بعد شهرين فقط على الانقلاب العسكري الذي تزعمه بخروج تظاهرة مؤيدة لنظام الأسد في ميدان التحرير وسط القاهرة.

جبال الجليد

المتتبع لتاريخ العلاقات بين حزب الله ومصر خلال السنوات الماضية يكاد يجزم بأن ذوبان الجليد بينهما يتطلب معجزة، فمع اندلاع حرب لبنان الثانية في ٢٠٠٦ اتهمت القاهرة التنظيم الشيعي بجرّ لبنان لحرب مدمرة دون التفكير في عواقبها، وفي عام ٢٠٠٩ تزايد الخلاف بعد أن دعا حسن نصر الله القاهرة للتدخل عسكريا لوقف العدوان الإسرائيلي على غزة، وهو ما اعتبرته مصر تحت حكم مبارك تدخلا سافرا في شئونها.

وفي أبريل ٢٠١٠ وجّه نظام مبارك ضربة قوية لـ «حزب الله» عندما أوقعت السلطات المصرية بخلية شيعية يتزعمها سامي شهاب، اتهمت بالتخطيط لتنفيذ عمليات إرهابية في مصر، وشنَّ رموز مبارك حربا كلامية على التنظيم وإيران التي قالوا إنها تدعم تلك النشاطات.

في الأيام الأولى للثورة المصرية فرّ شهاب من سجن وادي النطرون، وجرى الاحتفال به في مراسم رسمية بلبنان شارك فيها حسن نصر الله رغم اعتباره في القاهرة سجينا هاربا. وبصعود الإخوان المسلمين للحكم سادت مرحلة من جس النبض بين القاهرة و«حزب الله» وتحدث البعض عن فترة من الهدوء بل والتقارب البسيط على المستوى الخارجي، وقتها قال السفير المصري في لبنان إن بلاده تسعى لإقامة علاقات مع التنظيم على اعتبار أنه لا يمكن تجاهله.

كان من الواضح أن بقاء نظام الإخوان لن يصب في مصلحة «حزب الله»، وهو ما ترسخ لدى الشيعة بوجه عام بعد استقبال ملعب القاهرة مهرجان «سوريا الثورة»، بحضور الرئيس مرسي نفسه ورموز نظامه. كذلك وقبل أيام من الإطاحة به أمر الرئيس الإسلامي بقطع العلاقات مع نظام الأسد، مطالبا «حزب الله» بوقف تدخله في الحرب السورية بشكل فوري.

اعترافات الفرزلي

الحديث عن ذوبان جبال الجليد بين الحزب الشيعي اللبناني ونظام السيسي ليس محض افتراء أو تخمين، وإنما واقع احتفت به صحيفة «السفير» المقربة من حزب الله على لسان نائب رئيس المجلس النيابي السابق إيلي الفرزلي المعروف بعلاقته الوطيدة برجال التنظيم.

كتب الفرزلي على صفحات السفير بتاريخ ١٩- ١٢- ٢٠١٤ مقالا بعنوان «رؤية متقاربة للحل السوري.. ومواجهة التكفيريين.. مصر وحزب الله ينهيان سنوات الجفاء»، مؤكدا أن مع كل يوم يمر «تتقلص القضايا الخلافية بين مصر وحزب الله». وأن جبل الجليد صار مستنقعاً فيه بعض من الجليد الذي لا يؤثّر بقاؤه في العلاقة التي صارت مبنية على

أسس يصفها أطرافها بالمتينة والثابتة، على حد وصفه.

قواسم متشركة

وحدد الفرزلي خمسة قواسم مشتركة بين مصر وحزب الله بعد تحسن العلاقة بينهما وهي الحفاظ على أمن لبنان ودعم جيشه ومكافحة ما وصفه بـ «الإرهاب التكفيري» في البلدين وفي المنطقة، ونشر الاعتدال في البيئة السنية ومواجهة التطرف من خلال البعثات الأزهرية، بالإضافة إلى إعادة تعزيز دور دار الفتوى. والتأكيد على مركزية القضية الفلسطينية، وأخيرا ضرورة الحفاظ على وحدة الدولة السورية ومؤسساتها وجيشها، والتأكيد على الحل السياسي ومواجهة التنظيمات التكفيرية فيها.

إيران الأساس

وصدق الكاتب إذ أكد أن توطيد العلاقة المصرية مع «حزب الله» لا يمكن فصله عن التحسن الذي تشهده العلاقة مع إيران، ذلك التحسن الذي عبّر عن نفسه في مشاركة وفد إيراني برئاسة أحمد المبلغي، رئيس جامعة المذاهب الإسلامية الإيرانية، في مؤتمر الأزهر لمواجهة التطرف والإرهاب الذي عقد مطلع شهر ديسمبر بالقاهرة كممثل رسمي عن إيران، إضافة لاتخاذ النظام المصري سلسلة من الخطوات في عدد من القضايا لاقت استحسان النظام الإيراني (راجع مقالي «الأزهر.. حصان طروادة الإيراني لاختراق القاهرة»، بالراصد العدد الماضي).

السعودية و«حزب الله»

ويرى العارفون ببواطن الأمور أن السعودية ورغم ما فعلته الحرب على «داعش» من خلط للأوراق، إلا أنها لا يمكن أن توافق بحال على تجاوز التقارب المصري مع حزب الله الحد المسموح به. لذلك لا عجب أن يمارس التنظيم ضغوطا ناعمة على نظام السيسي لتخفيف ارتباطه بالمملكة، وهو ما عبر عنه الفرزلي قائلا: «وبالرغم من تفهم الحزب للأزمة المالية المصرية ولكون السعودية كانت من أوائل الدول التي اعترفت بالنظام الجديد، الذي كان يشهد عزلة دولية في حينه، فهو ينصح من يلتقيهم من المصريين بالتخفيف من حدة هذه العلاقة، التي ينظر لها في بعض الأوساط بأنها علاقة تبعية».

من يعرقل المشروع السُنّي العراقي؟
٢- هيئة علماء المسلمين

سمير الصالحي(*) – خاص بالراصد

في الحلقة السابقة تكلمنا عن دور حزب البعث في عرقلة المشروع السني في العراق، ولابد من التنويه إلى أنّ المشروع السني ليس مشروعا لتقسيم العراق أو هو مشروع تنفيذ للمخططات الغربية، وإنما هو مشروع لحماية السنة من: عدوان وهجمات الأحزاب الشيعية العراقية، وقوات الحرس الثوري الإيرانية الدموية والاستئصالية، وظلم المخططات الغربية والمخططات الصهيونية والمسيحية لجعل السنة أقلية في العراق، والتي كانت بدايتها من قبل الإنكليز سنة ١٩٢١م عندما روجوا كذبًا وبهتانا أن السنة في العراق أقلية تحكم الأكراد، والشيعة.

نتناول في هذا المقال دور هيئة علماء المسلمين في عرقلة المشروع السني الذي بدأ يتشكل بعد مؤامرة أمريكا وإيران بتنصيب المالكي رئيساً للوزراء برغم فوز القائمة العراقية بقيادة إياد علاوي في انتخابات سنة ٢٠١٠.

نبعت فكرة تكوين هيئة علماء المسلمين من جماعة الإخوان المسلمين سنة ٢٠٠٣، وأعطيت رئاستها لأحد أعضاء الإخوان وهو الدكتور حارث الضاري وابنه مثنى، وكلاهما

(*) كاتب عراقي.

ينتمي لتنظيم الإخوان[1]، ولكنه تمرد على الإخوان في العراق ليستقل بالهيئة لنفسه ويُخرج بقية الإخوان منها، ثم حصرها في مجموعة أفراد، منها ولده وبعض أقربائه.

انطلقت الهيئة منذ البداية برؤية قومية وطنية[2]، ولأن مستشاري للهيئة هم من الشخصيات القومية، والفكر القومي العربي ضارب أطنابه في العراق والشام فهناك تم تأسيسه، هذا الأمر أدى إلى ظهور تناغم فكري بين البعثيين والهيئة، وثمة أمر آخر وهو أن حزب البعث كان مطاردًا مع بداية الاحتلال وكان ظهوره صعبا؛ لذلك كان يشترك بالخفاء لتأييد الهيئة والظهور عبر واجهات مختلفة[3].

كانت بدايات الهيئة بعيدة عن إعلان الهوية السنية فكانت تدعي أنها لا تمثل العلماء السنة فقط لذلك جلبت رموزا شيعية مثل جواد الخالصي، وحسين المؤيد[4]، وأحمد الحسني البغدادي، لتكون لكل العراقيين، لكنها عجزت أن تجلب علماء أكرادا؛ لأن الكرد كانت عندهم قناعة بتحسن وضعهم بعد الاحتلال وأن الاحتلال جلب لهم المنافع.

والهيئة تعرف جيدًا أن هؤلاء العلماء من الشيعة لا يمثلون من شيعة العراق أكثر من واحد بالمائة أو قريبا من ذلك، وأنّ الشارع الشيعي في الغالب متقبل للاحتلال، إلا نفرا يسيرا منهم بسبب فقده مصالحه؛ من بعثيين شيعة أو بقايا توجهات وطنية حقيقية، وهم لا يشكلون شيئا يذكر في المجتمع الشيعي.

كان الثقل السني بكل توجهاته السنية الدينية والحزب الإسلامي والمقاومة المسلحة وحزب البعث يرفد الهيئة بالنصرة والتأييد كونها تَعتبر الهيئة الممثل الشرعي والرسمي للسنة وتمثل مقاومة سنية من طرف سياسي. ودافعت عنهم بشتى الوسائل ودعمت مواقفهم، كان هذا هو الحال في أول أيام الاحتلال.

لذلك انتمى للهيئة كل التوجهات الدينية كالإخوان (كونهم مؤسسين) والسلفيين وبعض الصوفية وبعض أعضاء حزب التحرير، لكن الهيئة ومع الأسف لم تكن تملك حسا سياسيا يتطابق مع مستوى التحدي والخطر، كون أكثر المنتمين لها لم يمتلكوا هذه الخبرة السياسية سابقا[5]؛ لذلك استطاعت جهات إقليمية (سوريا)، وجهات قومية (كحزب البعث) أن تتحكم بمسيرة الهيئة على حسب مصالحها، فالهيئة سارعت بزيارة بشار الأسد الذي وجه دعوة مبكرة لها، والذي كانت مخابراته قبيل الاحتلال تخطط لتواجد وطني عراقي يقاوم الاحتلال الأمريكي لمصلحة سورية وإيران؛ ذلك أن الأمريكان كان من ضمن برنامجهم بعد احتلال العراق ضرب سوريا وإيران (محور الشر) كما هو مثبت في مذكرات عبد الحليم خدام، نائب الرئيس السوري السابق.

وكانت الهيئة تهيئ الخالصي[6] **للرئاسة وأسست المجلس التأسيسي الوطني**، لتجمع القوى المناهضة للاحتلال، وكان التيار الناصري القومي يؤيد الهيئة كذلك، كما قام النظام السوري بجمع الهيئة في لقاء مع المقاومة اللبنانية بزعامة حسن نصر الله، ورغم أن ذلك تم، إلا أن الهيئة لم تعلن هذا.

(١) الشيخ د. حارث الضاري يحاول إنكار هذه الحقيقة هو وولده، وهو شيء معروف سابقا ولاحقا عند الجميع.

(٢) رغم أن هناك تناقضا فكريا بين القومية والوطنية لكنهما جمعا في عقل البعثيين بعد الاحتلال فقط.

(٣) تعاون حزب البعث مع الجهات المخالفة للاحتلال كالهيئة، ومع جهات مشاركة في الحكم كالدكتور إياد علاوي وصالح المطلك.

(٤) قبل هدايته وتسننه.

(٥) لأن دكتاتورية حزب البعث لم تسمح لغيره من الأحزاب في الظهور في فترة حكمه للعراق.

(٦) قبل كتابه هذه السطور قُتل زعيم عسكري كبير لجماعة الخالصي وهو يقاوم ويقاتل مع الحشد الشعبي الشيعي، ليفهم كم كانت الهيئة مغفلة عن معرفة حقيقة شخوص من تتعامل معهم.

عملت الهيئة على ترويج فكرة مقاومة كل العراقيين للاحتلال رغم أنها تقرّ بحقيقة أن لا مقاومة إلا للسنة، فلا الأكراد ولا الشيعة يشاركون واقعا بهذا الفعل، وحاولت أن تدعي وجود مقاومة وطنية لا مقاومة سنية، وهذا واضح في تصريحاتهم الإعلامية، وسوقت لهذا كثيرا، وعلى هذا الأساس كان لمقتدى الصدر[1] وتياره الصدري مكانة عند الهيئة، التي ادعت مرارا أنه جهة وطنية وحتى يوم أن تكشفت أوراق جيش المهدي التابع للتيار حين وجه سيوفه وبنادقه ذبحا بأهل السنة سنة ٢٠٠٦م، لم تتهمه الهيئة بل اتهمت فيلق بدر، ولم تتهمه إلا ضمن كلام عام بعد مرور سنتين.

وكانت فلسفة الهيئة كما هي فلسفة الوطنيين والبعثيين تقوم على أساس: أن ليس هناك صراع طائفي في العراق ولا حرب أهلية، بل هو صراع سياسي، وردّت على كل تصريح أو شخص يقول إن ذبح السنة يتم على الهوية بل هي أجندات سياسية. حتى صرّح الدكتور الشيخ حارث الضاري - عافاه الله[2] - : «لا توجد أصلا حرب أهلية في العراق منذ البداية، وإنما كانت - ولا تزال - فتنا يؤججها الاحتلال، وحلفاؤه بين آونة وأخرى، لإيقاع الفتنة بين أبناء الشعب العراقي، وإشغاله عن مشاريعه، ومشاريع حلفائه في العراق»[3]. كان هذا سنة ٢٠٠٥م.

ويقول كذلك بعد أربع سنوات (٢٠٠٩م): «هذا الأمر قد انتهى والحمد لله، التصفيات الطائفية كانت تصفيات سياسية أُلبست ثوب الطائفية السياسية؛ إذْ لم يكن هناك من البداية تصفيات طائفية بالمعنى المذهبي؛ أي الشيعة والسنة مثلًا، وهذا قد قلناه مرارًا على مدى السنين الماضية، وقد أكدت ذلك الأحداث؛ فكل ما حدث في العراق من فتنة أُلبست ثوبًا طائفيًا فهي فتنة سياسية كان وراءها الاحتلال وحلفاؤه الحاكمون»[4].

كما كانت الهيئة تركّز على فكرة: أن ليس هناك خطر في العراق سوى الاحتلال الأمريكي، وأن ليس لإيران نفوذ حقيقي وإنما نفوذ هزيل، وضعيف، فيقول الدكتور حارث: «المشروع الإيراني مشروع هزيل في العراق وليس قويًا، كما يعتقد العرب وغيرهم، وأن المشروع الإيراني يعتمد على حلفائه في العراق، وهم بدورهم يعتمدون على وجود الاحتلال في العراق، وأن المشكلة تكمن في الاحتلال باعتباره مظلة التدخل الإيراني والإسرائيلي والتدخلات الأخرى التي لم تكن موجودة في العراق إلا بعد مجيء الاحتلال، وأن التدخل الإيراني باق ما بقي الاحتلال الأمريكي، وأنه بمجرد رحيل الاحتلال سيخرج الإيرانيون من العراق على يد أبناء العراق الذين استطاعوا ملاكمة الثور الأكبر والقوة الأعظم، وباستطاعتهم ملاكمة أي متدخل آخر ودحره من العراق، سواء الإيرانيون أو غيرهم إذا لم ينسحبوا ويحترموا حق الجوار»[5].

إن هؤلاء هم من كانوا على قمة الهرم السني، وليس لهم رؤية ولا أدنى استشراف لحقيقة ما يجري، وليت الأمر اقتصر على ذلك، فوجود الهيئة خارج العراق مكّن لها من أن تكوّن جهة إعلامية تمثل الجانب السني وفق نظر ما تراه وعممت ذلك على كل الشعب العراقي، وكان لوجودها في دولة قطر خصوصية، فقد تمكنت من جمع أموال كثيرة لصالحها لتدعم بها من يؤيد أفكارها وامتلكت قناة فضائية (قناة الرافدين) لتروج لأفكارها التي خدعت أهل السنة وقاومت مشروعهم بدعوى المشروع الوطني وعدم تقسيم العراق.

وقفت الهيئة بقوة وشدة ضد فكرة تشكيل

(١) رغم أن التيار الصدري رفض الانتماء للهيئة.
(٢) يعالج الشيخ من مرض السرطان في تركيا منذ فترة عافاه الله.
(٣) حوار مع صحيفة السبيل الأردنية ٢٠٠٥/٧/٢٣.
(٤) حوار مع موقع لواء الشريعة، نُشر على موقع الهيئة ٢٠٠٩/٥/١٣.
(٥) صحيفة الشرق القطرية ٢٠١٠/٦/١٩.

البيت السني، وفكرة تشكيل إقليم سني يحمي أهل السنة من النواحي الأمنية والفكرية من الذوبان في المشروع الشيعي، واعتبرت ذلك بداية لتقسيم العراق ضمن المشروع الصهيو أمريكي، وربما يكون هناك صدق في بعض تخوفاتها، لكن هل أوجدت الهيئة حلا لسنة العراق، أو كان عندها من مخرج لأزمتهم؟

كانت الهيئة قبيل سنة ٢٠١١ تصر على قضية واحدة وهي خروج المحتل الأمريكي شأنها شأن كل التيار الوطني، وعندما كان يُسأل أعضاؤها عن مصير الحكومة العراقية كان جوابها جاهزا وهو أن خروج المحتل هو نهاية حكومته، وفعلا خرج المحتل وبقيت وقويت الحكومة الشيعية وظهر النفوذ الإيراني التي أبت الاعتراف به لغاية سنة ٢٠١١.

بعد سنة ٢٠١١ كانت فلسفة الهيئة تدور على أن المالكي هو حكومة محتل مدعومة من أمريكا، وتشير بحياء إلى إيران، وتنادي السنة بالتعاون مع الشيعة للقضاء على حكومة المالكي.

وقد تبدو شعارات الهيئة جميلة وبراقة وتحقق حلما جميلا لكنه حلم مغاير للواقع المر والحقيقة والمعطيات على أرض الواقع.

ورُب سائل يسأل: هل كانت الهيئة تجهل حقيقة الشيعة وإيران؟

والجواب: كلا، فالهيئة والمطلع على ذلك يفهم أنها تعرف ذلك الأمر جيدا وكذلك من اللقاءات الخاصة من شخوصها لا سيما الدكتور حارث يفهم بشكل واضح سنيته وهذا يصرح به في كثير من الأحاديث الشخصية والجانبية، لكن الهيئة والدكتور كانا يتخذان موقفا مغايرا في الخارج؛ لأنهما يعتقدان أن هذا هو الحل، وهو فهم الواقع العراقي وفق أجندة وطنية رغم عدم وجوده على أرض الواقع.

الهيئة والمقاومة العراقية السنية:

وقفت الهيئة مع المقاومة العراقية، وكان يتبع لها فصيل مقاتل مهم في العراق وهو كتائب ثورة العشرين، والاسم اختير وفق منظور وطني عشائري؛ وطني من حيث كون الثورة شارك فيها كل أهل العراق ضد الإنكليز، وعشائري لعلاقة جد الشيخ حارث الضاري (ضاري المحمود) بالثورة. ورغم أن كل فصائل المقاومة سنية ١٠٠٪ لكن الهيئة كانت تتخذ مواقف مختلفة من المقاومة، فكانت بعيدة عن المقاومة السلفية والإخوانية (لأن كليهما يحمل الهم السني)؛ مثل الجيش الإسلامي وجيش المجاهدين وحماس العراق وجامع، وكانت تحاول أن تكون هي المثلة السياسية للمقاومة العراقية، وبحكم تواجد القيادات العسكرية للمقاومة في سوريا كانت هناك رغبات متعددة لتوحيد المقاومة والتخلص من شرذمتها، وكانت المقاومة السنية تثق بالشيخ حارث الضاري في بداية الأمر، لكن الهيئة رفضت ذلك؛ وتقسمت المقاومة إلى ثلاث جبهات:

جبهة الجهاد والتغيير: الهيئة وبعض الفصائل التابعة لها.

جبهة الجهاد والإصلاح: الجيش الإسلامي، وجيش المجاهدين، أنصار السنة (الهيئة الشرعية)، وجامع، وحماس العراق.

جبهة الجهاد والتحرير والخلاص الوطني: الفصائل البعثية.

أما وقوف الهيئة ضد هذه الفكرة فلعدم رغبتها بتمويل الفصائل، وهي الجهة التي تمتلك الرصيد المالي الأعلى، وعدم إيمانها بكثير من مشاريع المقاومة، إذ أن الهيئة ثبت أنها تريد ريادة المشروع الوطني ورئاسته، وأنها لا تؤمن إلا بمشروع هي تصنعه وتقوده كما سيتبين فيما بعد.

ظهور المشروع السني ٢٠١٢:

عندما ظهر المشروع السني سنة ٢٠١٢م حاربته الهيئة، وقاومته بشتى السبل، مثلما وقفت أمام مشروع فيدرالية السنّة، حتى استحصلت على فتوى من د. عبد الكريم زيدان رحمة الله مرشد الإخوان سابقا عن كُفر تبني الفيدرالية[1]. وسعت هي

(١) هي فتوى خاطئة لا تتم عن فقه في السياسة الشرعية، ومثل هذه الأمور لا توصل مدعيها لحد الكفر.

وحزب البعث جاهدة لإفشال هذا المشروع، وسعت بعد ظهور المشروع السني سنة ٢٠١٢ لإفشاله، لكنها لم تستخدم القناة (الرافدين) أو نفوذها الإعلامي وعلاقاتها وحسب بل استخدمت وسيلة أخرى غير نزيهة، فعند ظهور الحراك السني سنة ٢٠١٣ أوحت إعلاميا أن ثمة ثورة عراقية ضد حكومة المالكي، وليست ثورة سنية، محاولة مرة أخرى خداع العالم والعراقيين بهذا التوصيف، ومارست نفس دور حزب البعث، وعلى أرض الواقع وفي ساحات الاعتصام ساهمت بأموالها بتقسيم التجمع السني إلى أقسام، وطني وسني، واشترت العديد بأموالها رافضة فكرة المطالب السنيّة إلى فكرة المطالب العراقية.

وعندما اعتقل النائب الدكتور أحمد العلواني بداية سنة ٢٠١٤ وظهر القتال جليا بين عشائر الأنبار، والحكومة، حاولت الهيئة أن تغري العديد من الفصائل أن تتبنى رؤيتها مقابل الدعم المالي، وتوسع الأمر هنا، وظهر دور جديد للهيئة، وهو الدور المالي، الذي تمارسه من أجل فكرتها وتحطيم وتحويل أي تجمع سني إلى تجمع وطني ومتابعة المشروع السني والتشويش عليه، وأصبحت مَلَكية أكثر من الملك؛ ونقصد هنا حزب البعث، رغم كون اسمها هيئة علماء، وترفض أن تكون واجهة سياسية أو مقاومة.

أثناء معارك الأنبار مع الحكومة الشيعية (المالكي) حاول حزب البعث وبعض الفصائل والعسكر القديم تكوين جبهة سياسية معارضة تمثل الثورة ضد الحكومة؛ فوقفت الهيئة ضد الفكرة، وظهرت فجوة واضحة بين الجهتين (البعث والهيئة)، وهنا ظهرت رغبة الهيئة في تزعم المشاريع بشكل واضح.

طور جديد للهيئة:

لم تعد الساحة السنية بعد عمليات الذبح والقتل والتشريد والإقصاء الذي مارسته حكومة المالكي وإيران تصدق دعاوى الهيئة أن لا نفوذ لإيران بالعراق.

فغيرت الهيئة شيئا من خطابها وأصبحت تهاجم إيران حتى قالت: إن أمريكا شريكة بكل جرائم إيران في العراق، وكانت من قبل ٢٠١١م تمجّد بشار الأسد وتمدح مواقفه، فأصبحت بعد الثورة السورية وخروجها من سوريا تندد ببشار، وأقول اليوم: أصبحت الهيئة تقول صراحة إن إيران تتدخل في العراق، وتقول إن هناك تعاونا إيرانيا أمريكيا لتمكين جهة دون أخرى!!!

فأي ثبات تمتلكه الهيئة وأي رؤية استراتيجية عندها، وقضية إيران وسوريا معروفة التوجهات منذ أمد بعيد لكل سياسي أو قارئ لوضع المنطقة!!

بعد محاولات الأردن في أواسط سنة ٢٠١٤ لجمع الصف السني - عقب ظهور داعش- بمؤتمر يجمع الجميع؛ شاركت الهيئة وحزب البعث والفصائل المسلحة والعسكر والعشائر، وظهر واضحا انزعاجها من الهوية السنية هي وحزب البعث وبعض التوجهات العلمية الدينية المحسوبة عليهما حتى أنهم رفضوا ذكر كلمة السني في البيان الختامي، وعملت الهيئة بشكل واضح على استعمال إمكانياتها المالية لكسب النخب خارج العراق، لتأييد مشروعها الوطني، الذي هو في الحقيقة تخدير للسنة ولا يصب إلا بصالح إيران والنظام السوري.

تملك الهيئة علاقات قوية جدا مع دولة قطر وهي أكثر جهة مستفيدة ماليا من قطر، ومن قناة الجزيرة، والأموال بيد شخص من أقرباء الشيخ الدكتور حارث الضاري، لذا سارعت قبل فترة وجيزة بإقامة مؤتمر في اسطنبول وهو (منتدى الكفاءات العراقية) حضره ٢٤٠ شخصية من نخب عراقية تكنوقراط من البعثيين والشيعة والسنة، في الوقت الذي كان السنة يُذبحون في العراق، ومنارة الملوية في سامراء متشحة بسواد الميليشيات الشيعية، وثلاثة ملايين شيعي متطوع للحشد الشعبي[1] هذا هو الواقع العراقي المر في ظل هجمة كبرى على سنة العراق، وستبقى الهيئة وحزب البعث معوقًا أساسيا لظهور وتكوين أي مشروع سني عراقي.

(١) فرات ناجي، موقع كتبات/ المنتدى العراقي للنخب والكفاءات حكومة بعثية مصغرة.

الطريقة الختمية بالسودان...
طموحات سياسية وصلات شيعية

محمد خليفة صديق(*)– خاص بالراصد

مقدمة:

تعتبر الطريقة الختمية من الطرق حديثة النشأة مقارنة بالطرق الصوفية الأخرى في السودان، فقد تأسست سنة ١٨١٧م على يد محمد عثمان الميرغني الملقب بالختم (١٧٩٣- ١٨٥٣م)، والذي أرسله أستاذه الشيخ أحمد بن إدريس للدعوة في السودان، وقد أرخ لأسرته الجبرتي في تاريخه، وتعتبر الختمية من الطرق الصوفية الكبيرة ذات التنظيم المركزي، وقد تعرضت للتضييق كغيرها من الطرق الصوفية في عهد الدولة المهدية بالسودان (١٨٨٥- ١٨٩٨م)، مما اضطر مرشدها الروحي علي الميرغني للجوء إلى مصر، والذي يُتهم بأنه عاد في رِكاب الجيش الإنجليزي الغازي للسودان، وتمتعت الطريقة بالتأييد الحكومي طوال عهد الاحتلال الإنجليزي للسودان.

وفي عام ١٩٥٦م الذي استقل فيه السودان، أسس مرشدها بالتعاون مع بعض المثقفين حزب الشعب الديمقراطي، ثم اتحد الحزب لاحقا مع الحزب الوطني الاتحادي، وكوّنا الحزب الاتحادي الديمقراطي، وأصبح الحزب من أقوى الأحزاب السودانية التي تداولت السلطة عدة مرات، وما يزال مشاركا في السلطة في عهد الإنقاذ الحالي، حيث يتولى نجل شيخ الطريقة الختمية جعفر الصادق الميرغني منصب مساعد رئيس الجمهورية.

يتناول هذا المقال الطريقة الختمية وخلفياتها الفكرية والعقائدية ونشاطها السياسي، بجانب بعض من مخالفاتها، سيما علاقتها بالشيعة والتشيع.

من هو مؤسس الطريقة الختمية؟

هو محمد عثمان بن السيد محمد أبي بكر بن السيد عبد الله (المحجوب) بن السيد إبراهيم بن السيد حسن بن السيد محمد أمين بن السيد علي ميرغني، وأوصل كتاب «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للجبرتي نسبه بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولد بالطائف سنة ١٧٩٤م، وأخذ الطريقة النقشبندية أولاً ثم الشاذلية ثم الطريقة القادرية والجنيدية وغيرها وصحب الشيخ أحمد بن إدريس أربع سنوات وأجازه بإنشاء طريقته الختمية.

قام برحلات عديدة إلى بلاد اليمن، ثم مصوع، وبلاد الحبشة وما جاورها، ورحل كذلك إلى صعيد مصر، ومنه ارتحل إلى شمال السودان سالكاً طريق النيل من جهة حلفا والسكوت والمحس ودنقلا إلى أن وصل بلدة الدبة، ثم توجه منها إلى كردفان حيث وصل مدينة الأُبيض سنة ١٢٣٠هـ ثم مدينة بارا ثم نواحي كردفان الأخرى، ثم اتجه إلى سِنار وما جاورها، ثم سافر إلى بلاد الجعليين والرباطاب بشمال السودان، ثم اتجه إلى شرق السودان سالكاً طريق نهر عطبرة لما عليه من كثرة السكان حتى بلغ جبال التاكا وأسس بها قرية السنية التي تعرف الآن بالختمية، والتي قامت عليها مدينة كسلا فيما بعد، ثم ارتحل إلى بلاد إريتريا، ثم عاد منها إلى مكة المكرمة، وقد كانت هذه أطول رحلاته حيث استغرقت خمس سنين.

وبعد ذلك بمدة قام برحلته الثالثة إلى السودان عن طريق ميناء مصوع على البحر الأحمر واستقر بقريته آنفة الذكر، ثم قام برحلته الرابعة والأخيرة إلى مدينة سواكن سنة ١٢٦٠هـ والتي كانت آنذاك ملء السمع والبصر، حيث مكث بها مدة تمكن من تعميم نشاطه بها وجعلها أيضاً مركزاً لنشر دعوته، وشيد فيها مساجده الثلاثة المسماة: (مسجد الأسرار، ومسجد الأنوار، ومسجد الأبرار) وجعلها معاهد ذات مراحل ثلاث لنيل جميع العلوم الشرعية، كما شيد بها معهداً لتعليم النساء كان الأول من نوعه في السودان، ثم رجع بعد ذلك إلى مكة المكرمة.

(*) كاتب سوداني.

كانت له مؤلفات عديدة منها تاج التفاسير في تفسير القرآن الكريم، ويقع في مجلدين، وكتاب المولد العثماني المسمى بالأسرار الربانية في السيرة والشمائل، وكتاب الخزانة القدسية في التصوف والسلوك، وكتاب الحكم المسماة بالفيوضات الإلهية في التصوف والسلوك، وديوان النور البراق في مدح النبي ﷺ ، وديوان تخميس بردة البوصيري في مدح النبي ﷺ وغيرها.

التعريف بالطريقة الختمية:

سميت الطريقة بالختمية نسبة للقب مؤسسها محمد عثمان الميرغني (الختم)، وسبب اللقب هو ادعاؤه أنه خاتم الأولياء كما أن النبي ﷺ خاتم الانبياء، كما يقال لاعتقاد مؤسسها بأنها خاتمة الطرق الصوفية التي انتشرت في ذلك الزمان، بمثل ما كانت الدعوة المحمدية خاتمة للديانات السماوية.

وعلى من يريد أن يدخل الطريقة الختمية بأن يتجه إلى شيخ الطريقة أو من ينوب عنه من الخلفاء المجازين فيطلب منه ذلك، وعليه أن يتوضأ ويقرأ بين يديه البيعة وصيغتها: (اللهم إني تبت إليك ورضيت بسيدي محمد عثمان شيخاً في الدنيا والآخرة، ثبتني اللهم على محبته وطريقته في الدنيا والآخرة، بحق سيدنا محمد بن عبد الله بن عدنان وبحق بسم الله الرحمن الرحيم (وتقرأ الفاتحة سرا) ثم يلقنك الشيخ أو من ينوب عنه (أساس الطريقة) وهو عبارة عن الباقيات الصالحات وأدعية وأذكار وصلوات على الرسول ﷺ تقال عقب الصلوات الخمس، ثم يتدرج مع الشيخ من بعد ذلك في الأذكار والأوراد بحسب الحال.

وللطريقة أوراد وأذكار منها ما يُعرف براتب المرغني وهو مَن أسس الطريقة، ومنها ما يطلق عليه حبل الوصال وهو عبارة عن منظومة تشتمل على التوسل بأسماء الله الحسنى، وتراكم الأنوار وهو عبارة عن منظومة تشتمل على التوسل بأسماء الرجال، والشكية وهي عبارة عن منظومة تشتمل على التوسل بالنبي ﷺ ، والحسبلة وهي (حسبنا الله ونعم الوكيل) بعدد ٤٥٠ مرة، كما اعتاد الختمية قراءة المولد العثماني جماعةً ليلتي الاثنين والجمعة وبعد صلاة الجمعة.

وللطريقة الختمية تنظيم هرمي يبدأ من شيخ الطريقة وهو مرشد الطريقة ويكون عادة من آل البيت المرغني، وشيخ الطريقة حاليا هو محمد عثمان المرغني حفيد مؤسس الطريقة، وهو كذلك رئيس الحزب الاتحادي الديموقراطي. والمنصب الثاني هو خليفة الخلفاء، وهو المقدم على كل خلفاء البلد أو الناحية، وهناك النائب وهو من ينوب عن خليفة الخلفاء في حال غيابه، وبعده الخليفة وهو صاحب الإجازة المقيدة بمسجد أو زاوية أو جهة معينة، وبعده النقيب وهو تحت الخليفة، ووظيفته حث المريدين على الأوراد وتنظيم الحضرة وما شابه ذلك، وأخيرا وهو تحت الخليفة، ووظيفته خدمة الحضرة والضيوف وغيره، والنظام أن يكون تحت كل خليفة مقدم ونقيب.

انتشار الختمية ومواقع نفوذها:

تركز وجود الطريقة تاريخياً من حيث الأتباع والنفوذ الآن في السودان، لا سيما في شمال السودان وشرقه وأطراف إريتريا المتاخمة للسودان، ومركز الطريقة بالسودان يقع في الخرطوم بحري، وبها مسجد الطريقة الرئيس ومدفن السيد علي الميرغني. وتعتبر مدينة كسلا شرقي السودان المركز الثاني للطريقة التي يمتد نفوذها بين القبائل المشتركة بين السودان وإرتيريا، وللطريقة مراكز للإرشاد بدولة إرتيريا، وتنتشر الزوايا الختمية في أغلب مدن السودان.

وارتبطت شهرة الطريقة في الأربعين سنة الأخيرة بمرشدها محمد عثمان المرغني وهو حفيد مؤسس الطريقة والذى يتولى كذلك زعامة الحزب الاتحادي الديمقراطي.

بعض من مخالفات الختمية:

الختمية طريقة صوفية تلتقي مع الطرق الصوفية الأخرى في كثير من المعتقدات المنحرفة والتي من أبرزها الغلو في شخص الرسول ﷺ والقول بالحلول ووحدة الوجود، بجانب ارتباطها الوثيق في العصر الحاضر بالفكر والمعتقد الشيعي، خاصة فيما يتعلق بأقوال الشيعة وجدلهم حول الإمامة، ومن

أبرز مخالفات الطريقة، ما يلي:

١- يزعم محمد عثمان المرغني مؤسس الطريقة الختمية أن الله كلّمه وقال له: «أنت تذكرة لعبادي ومن أراد الوصول إليَّ فليتخذك سبيلا وأن من أحبك وتعلق بك هو الذي خلد في رحمتي، ومن أبغضك وتباعد عنك فهو الظالم المعدود له العذاب الأليم»، والمرجع لهذا القول هو كتاب الهبات المقتبسة من تأليف محمد عثمان المرغني، ص ٧٦.

ومعلوم أن هذا الادعاء باطل، فكيف يدعي الميرغني أن الله كلّمه وخاطبه، وهو ليس بنبي ولا رسول، والله تعالى يقول: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾ [الشورى: ٥١].

كذلك زعمه أن الله قال له: «من أحبك يخلد في رحمتي ومن أبغضك فله العذاب الأليم»، وهذا باطل ومخالف للإسلام، لأن المعلوم في الشريعة أن الحب في الله والبغض في الله عبادة يتقرب بها إلى الله وقد جاء في حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله» رواه البيهقي.

٢- يزعم المرغني «أن رسول الله قال له: مَن صحبك ثلاثة أيام لا يموت إلا ولياً وأن من قبّل جبهتك كأنما قبّل جبهتي ومن قبّل جبهتي دخل الجنة ومن رآني أو رأى من رآني إلى خمس لم تمسه النار، وهذا في كتاب الطريقة الختمية بعنوان مناقب صاحب الراتب تأليف محمد عثمان الميرغني ص ١٠٢.

وفي هذا الكلام زعم وافتراء عريض أن من رآه أو رأى من رآه إلى خمس يدخل الجنة، وهل ضمن المرغني الجنة لنفسه؟! ومعلوم أن النبي ﷺ قد رآه كثير من اليهود والنصارى والمشركين وماتوا على الكفر، ولم يقل ﷺ ذلك، فهل هو أفضل من رسول الله ﷺ ؟ وخاتمة الناس لا يحكم عليها بمجرد رؤية إنسان ما مهما كان مقامه، وفي حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراعاً فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعاً فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»، رواه مسلم.

٣- يزعم المرغني أنه أعطى راتباً لا يقدر على قراءته أحد غير النبي صلى الله عيه وسلم والمهدي» وهذا في كتاب للطريقة الختمية بعنوان رسالة الختم تأليف جعفر بن السيد محمد عثمان ص ١١١.

وهذا مما يدل على أنه ليس من الدين، لأن الله جعل التكليف على وسع البشر وذلك لقوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ومن الغريب أنه يزعم أنه لا يستطيع قراءته أحد غير النبي والمهدي، وهذا يعني أنه حتى هو نفسه لا يستطيع قراءته، فما الفائدة إذا من هذا الراتب.

٤- يزعم الختمية أنه لو كان نبي بعد النبي لكان محمد عثمان الميرغني، وجاء ذكر ذلك في كتاب رسالة الختم تأليف جعفر بن السيد محمد عثمان الميرغني، ص ١١٥ – ١١٦ ما يأتي في مدحه أن الرسول قال ذلك وقدمها مادحهم في قوله:

ولو كان بعدي يأتي نبي   فعثمان كان له أُوحِيَ

وهذا افتراء واضح وكذب صريح يختلف مع قول النبي ﷺ فيما أخرج الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان نبي بعدي لكان عمر» وفي رواية أخرى: «لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر».

٥- يزعم الختمية أنه لا يجوز زيارة المريد للشيخ إلا على طهارة وأن حضرة الشيخ هي حضرة الله وذلك في كتاب منحة الأصحاب تأليف: أحمد بن عبدالرحمن تلميذ محمد سر الختم الميرغني ص ٦٧ حيث ورد الآتي في آداب المريد مع الشيخ «وأن لا يزور المريد الشيخ إلا على طهارة لأن حضرة الشيخ هي حضرة الله».

ومن المعلوم أنه لا يوجد دليل للطهارة في زيارة الأشخاص حتى ولو كان في درجة رسول وقد أخرج

البخاري في الصحيح عن أبي هريرة أنه لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة فانخنس منه فقال له النبي ﷺ: «أين كنت يا أبا هريرة؟ قال: كنت جنباً فكرهت أن أجالسك فقال النبي ﷺ: «سبحان الله إن المؤمن لا ينجس».

٦- يزعم الختمية بأنه ينبغي عند الشدائد أن تلجأ إلى الميرغني من دون الله، وقد ورد ذلك في كتاب للطريقة بعنوان تجمع الأوراد الكبير، تأليف محمد عثمان المرغني، ص ١٤٧، وذلك في قوله:

ومهما أتاك خطب جليل فقم وناده وقل يا مرغني.

وهذا الزعم يكذبه قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإن قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعان﴾ [البقرة ١٨٦]، وقول النبي ﷺ من حديث ابن عباس «إذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» رواه الترمذي وقوله تعالى: ﴿ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ [الأحقاف: ٥].

٧- يذكر الختمية الله تعالى بأسماء لم ترد في القرآن ولا في السنة النبوية، وقد ورد في أذكارهم في دعوة البرهتية عن محمد الحسن الميرغني في كتابه مجمع الأوراد الكبير ص ١١٦: «أن يقول بسم الله الرحمن الرحيم وصلى آله على سدنا برهتيه، تبتليه طوارك، مزحل، برهشب، خوطر، قلينهود، برشا كطهير بانموا شلخ، شماهير، شمها حيرحورب النور الأعلى عبطال فلا إله إلا هو رب العرش العظيم ».

ومن المعلوم أن هذه الكلمات التي وردت في هذا الذكر المزعوم ليس لها أصل في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيُجزون ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٨- يزعم الختمية أنه يجب على المريد طاعة شيخه وإن خالف الشرع، وقد ورد ذلك في كتاب للطريقة بعنوان منحة الاصحاب، تأليف أحمد عبدالرحمن تلميذ محمد سر الختم المرغني ص ٦٧ قوله: (فإذا قال الشيخ للمريد اقرأ كذا أو صُم كذا أو قال له وهو صائم افطر أو قال له لا تقم الليلة فإنه يطيعه، قال سيدي أبو يزيد البسطامي لتلميذ له أفطر ولك أجر يوم فأبى، وقال ولك أجر جمعة فأبى، فقال ولك أجر شهر فأبى، وقال ولك أجر سنة فأبى، فقال له بعض الحاضرين: مخالفتك هذه تضرك، فقال الشيخ: دعوا من سقط من عين الله).

وهذا مخالف لتعاليم الاسلام، فالشريعة جاءت تدعو العباد للأعمال الصالحة يقول الله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وجاء فى الحديث أن الرسول ﷺ قال: «نِعم الرجل الصالح عبدالله بن عمر لو كان يقوم الليل، قال ابن عمر: ما تركت قيام الليل بعد ذلك». (رواه أحمد).

الطريقة الختمية والسياسة:

كانت الطريقة الختمية خلال حياة علي الميرغني أكثر اهتماما بالشباب السوداني، وكانت بتنظيمها الشبابي أكثر انتظاما والتصاقا بالشارع السوداني. ولكن هذا الاهتمام بدأ يتقلص في أواخر حياة علي الميرغني، وتلاشى تماما في عهد ابنه محمد عثمان الميرغني المرشد الحالي للطريقة الختمية وشيخها، مما جعل وجود الطريقة يتقلص تدريجيا بين الشباب وعامة الناس في السودان.

ويرى مراقبون أن محمد عثمان الميرغني ترك أمر الدين جانبا وبدأ يوجه كل مجهوداته نحو الكسب السياسي في معركة لم يتأهل لها ولم يُعد لها عدتها، ورغم ذلك لم يتفرغ لأمر السياسة، وجمع بين السياسة والطريقة الدينية مما جعله لا يحرز نجاحا في كليهما.

علاقة الختمية بالسياسة قديمة، وهي رغم أنها طريقة صوفية فقد دخلت السياسة من باب الأحزاب الطائفية، وحزبها حاليا هو الحزب الاتحادي الديموقراطي، وقد تأسس هذا الحزب بعد اندماج الحركة الاتحادية السودانية بأحزابها التي تكونت

في فترة النضال ضد الاستعمار، وكان لهذه الاحزاب الدور الأكبر في استقلال السودان عام ١٩٥٦، حينما استطاعت أن تعلن استقلال السودان من داخل البرلمان عام ١٩٥٥ ، وكانت لها الأغلبية داخل البرلمان بعد اكتساحها لانتخابات عام ١٩٥٣.

بلغ عدد الدوائر في انتخابات عام ١٩٥٣، ٩٧ دائرة تنافس عليها ٢٢٧ مرشحا يمثلون ستة أحزاب، وفي هذه الانتخابات أحرز الحزب الوطني الاتحادي ٥٣ مقعدا في الدوائر الجغرافية، وحصل على ثلاثة مقاعد في دوائر الخريجين، وقال مراقبون آنذاك إن معظم تأييد الوطني الاتحادي جاء من المدن ومناطق الاستقرار في أواسط السودان، وهو مكان نفوذ الطريقة الختمية.

وفي انتخابات ١٩٨٦م حصل الحزب الاتحادي الديموقراطي على ٦٣ مقعدا في البرلمان، من جملة ٢٢٤ مقعدا.

ويمكن القول إن الحزب الاتحادي الديموقراطي هو عبارة عن اتحاد عدة أحزاب سياسية منها حزب الأشقاء وحزب الوطني الاتحادي وحزب الشعب الديموقراطي، حيث كان إسماعيل الأزهري أول رئيس وزراء لجمهورية السودان بعد الاستقلال رئيسا لحزب الوطني الاتحادي، وقاد به معركة الاستقلال.

يرأس الحزب الاتحادي الديموقراطي حالياً محمد عثمان الميرغني مرشد الطريقة الختمية الصوفية، وهذا الحزب باسمه الحالي كان نتيجة لاندماج الحزب الوطني الاتحادي مع أحزاب الاشقاء وحزب الشعب والحزب الوطني وأحزاب أخرى في عام ١٩٦٧ مع حزب الشعب الديمقراطي فتؤخذ كلمة (الاتحادي) من الحزب الوطني الاتحادي وكلمة (الديمقراطي) من حزب الشعب الديمقراطي فيصبح اسم الحزب الجديد الاتحادي الديمقراطي.

في الجانب السياسي أرادت قيادة الختمية أن تمارس السياسة بنفس القدسية الدينية وأن يكون المكتب السياسي للحزب الاتحادي الديمقراطي والهيئة البرلمانية وغيرهما من تنظيمات الحزب رهن الإشارة وتمنح التفويض للزعيم تفويضا يجمد فيه الجميع أعمال فكرهم ولا يصرح أحدهم برأيه إن كان مخالفا لرأي الزعيم ومرشد الختمية. فأرادت قيادة الختمية ممارسة السياسة بنفس الطريقة التي تدير بها الطريقة الصوفية من الطاعة الكاملة وتقبيل الأيادي والسمع والطاعة. لذلك انفض من حول الزعيم معظم المتعلمين والمثقفين من أبناء الطريقة الختمية الذين كانوا يعارضون نظام الرئيس نميري بالسودان طيلة ستة عشر عاما.

وخلال عهد الرئيس نميري حاولت قيادة الختمية الحالية أن تتدخل في الشأن السياسي للحزب، وحاول السيد محمد عثمان الميرغني بعد استيلائه على الحزب أن يقدم شيئا، ولكنه أضعف الحزب وشتت شمله وزعزع كوادره في العمل السياسي.

كما أخفقت الختمية والحزب الوطني الاتحادي على مدى الديمقراطية الثالثة في السودان في الفترة من ١٩٨٦ وإلى ١٩٨٩م في أن تلم شمل الاتحاديين، بل فرقته ووقفت حجر عثرة أمام عقد مؤتمر الحزب العام، وصارت تطلب ممارسة السياسة بالتفويض في وقت الكل وضعه في القيادة استثنائي وليس انتخابا.

ودخول الختمية في المجال السياسي، قادهم ليتبنوا مع بقية الفصائل السياسية في المعارضة مبدأي تقرير المصير لجنوب السودان وفصل الدين عن السياسة (عن الدولة) وهما مبدآن يتناقضان جملة وتفصيلا سياسيا مع مبادئ الحزب الاتحادي الديمقراطي الذي يدعو للوحدة بمعناها الشامل في السودان وعربيا وأفريقيا ودينيا مع الطريقة الختمية التي تعتمد في مرجعيتها على الدين.

وهذا يشير لتوافق هذا الحزب مع العلمانيين، بل كان قد وضع يده مع زعيم متمردي جنوب السودان النصراني جون قرنق، حينما وقع رئيس الحزب الاتحادي الديمقراطي ومرشد الختمية محمد عثمان المرغني اتفاقية مع قرنق، عرفت باتفاقية المرغني قرنق، وأبرز بنودها إلغاء قوانين الشريعة الإسلامية التى طبقها الرئيس الأسبق جعفر نميري.

وفي علاقته مع الغرب يلاحظ أن هناك علاقات

ورضا متبادل، وتاريخيا كما ذكرنا دخل مرشد الطريقة الختمية علي المرغني السودان مع الجيش الاستعماري الغازي للسودان نهاية القرن التاسع عشر، وحاليا مازال رئيس الحزب الاتحادي الديموقراطي ومرشد الطريقة الختمية يتخذ من لندن مقرا له، ولا يقيم بالسودان إلا في فترات قليلة.

الختمية والتشيع:

للختمية أصول مشتركة مع الشيعة، ويظهر ذلك أحيانا في صورة تأثير التشيع على الحركة الصوفية، وقد أثبت صاحب كتاب (الصلة بين التصوف والتشيع) وجود صلة بينهما في الانتماء التاريخي، إذ أن سلاسل الصوفية تلتقي مع الشيعة في الإمام السادس من أئمتهم، كما أن هناك مظاهر مشتركة بين معتقد الإمامة لدى الشيعة والولاية لدى الصوفية إلى غير ذلك من قضايا ومسائل متشابهة بين الفريقين.

ورغم هذه الصلة فإننا لا نجد أن إحدى الطرق الصوفية تدعي هذا الانتماء أو تتشرف به فيما عدا الارتباط العام لدى الصوفية بأهل البيت، أما الختمية فنجد أن لها ارتباطا بالشيعة أو على الأقل بأئمتهم الاثني عشر، ويتبنى بعض المعاصرين من الختمية بعض مقولات الشيعة في الإمامة، ويستفيدون من الأدب الشيعي وحججه للدفاع عن تلك المقولات، بل إن هناك محاولة لدى بعض الختمية المعاصرين للربط بين الطائفتين في التوجه والمستقبل والمصير.

ويعتبر الختمية أنفسهم امتدادا لهذا التاريخ الشيعي المتمثل في ولاية أهل البيت، والمرتبط بحركة البعث الشيعية المعاصرة، بل يدعون أن تاريخ السودان كله ما هو إلا استجابة لولاية أهل البيت وتحقيق لها. فيقول أحد الختمية: «إن الأئمة من آل البيت هم الزعماء والقادة وأهل الكلمة والتوجيه في كل الممالك السودانية، ويضرب مثلا لذلك بملوك العبدلاب، الذين هم أشراف من آل البيت، ثم دولة المهدية التي قامت على يد إمام من آل البيت وهو محمد أحمد المهدي». وإذا كان المهدي من آل البيت وزعامته زعامة مشروعة، فلماذا إذن حاربه أسلاف البيت المرغني؟ وأعانوا على تقويض دولته؟ كما ذكرنا في بداية المقال.

وقد حاول الختمية المعاصرون أن يضفوا على زعمائهم ما أضفاه الشيعة على أئمتهم، من إيجاب الطاعة الكاملة لهم، والموالاة المطلقة. وربطوا ذلك بحركتهم السياسية والأحزاب التي أنشأوها، فدور الإمام أو الزعيم يتمثل في الرعاية وتوجيه الأتباع والمريدين في الأمور الجسيمة، ودوره شبيه بدور علماء الشيعة أو المرجعية الشيعية. وهم (أي الزعماء) في هذا الأمر أشبه ما يكون بأمر المرجعية في إيران حيث يفتي الإمام الأكبر في الأمور الجسيمة ويوجه وينصح ولكن تُحكم البلاد برئيس جمهورية ورئيس وزراء وبرلمان منتخب.

بل إن الرعاية كما يقول أحد الختمية: تلزم بالنسبة للختمية من جهتين: من جهة أن الختمية طريقة صوفية، والتصوف يقوم على الالتزام ببيعة معينة توجب طاعة تامة للشيخ المرشد ومن ثم فإن طاعة أهل الطريقة الختمية لشيخهم أمر لابد منه، وإن لم يلتزموا بذلك خرجوا عن الطريقة إلى غير رجعة.

والجهة الثانية: المتمثلة في وجوب ولاية أهل البيت عليهم كبقية المسلمين على اعتبار أن المراغنة من أهل البيت فتجب طاعتهم تبعا لهذا.

وقد حاول زعماء الختمية استغلال هذه المفاهيم في المجال السياسي فألزموا أتباعهم بنهج سياسي معين، والالتزام بإشارتهم في المواقف السياسية، وربطوا ذلك كله بعقد البيعة، فمن لم يتبع زعماء الطائفة في مواقفهم السياسية سقطت بيعته، بل يخشى عليه سوء الخاتمة، كما يقولون: «أي ختمي انضم إلى أي حزب آخر غير الاتحادي الديمقراطي أو صوت له في الانتخابات أو عارض قيادات الحزب الاتحادي الديمقراطي فإن بيعته ساقطة ويخشى عليه سوء الخاتمة لقول الرسول ﷺ فيما رواه الحاكم (أهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف فإذا خالفتهم قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس).

ومن ناحية أخرى فإن زعيم الختمية كالإمام عند الشيعة، لا يقدم على رأيه، ورأيه ملزم لمن عداه من القادة والسياسيين، ومن ثم اعتبرت الختمية من

ملامح الجمهورية الإسلامية وجود إمام من أئمة أهل البيت تكون له الكلمة القاطعة والرأي النهائي في كل أمر من الأمور، حيث قالوا: «يجب أن يوجد من أئمة البيت من يكون رأيه ملزما للسياسيين في كل أمر من الأمور، لأنهم لا يضلون بنص القرآن والسنة، وسندنا في ذلك ولاية أهل البيت التي أعلنها الرسول وأخذ بها الخلفاء الراشدون، وقد ثبت أن سيدنا عمر كان يأخذ برأي الإمام علي في كل أمر من الأمور وهو القائل عن علي: «هو مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

ويرتبط الختمية من ناحية نسبهم كما يقولون بأئمة الشيعة الاثني عشرية وقد أورد جعفر الميرغني نسب والده محمد عثمان (الختم) مؤكدا ذلك على النحو التالي: «إنه محمد عثمان بن السيد محمد أبي بكر بن مولانا السيد عبد الله الميرغني المحجوب بن السيد إبراهيم بن السيد حسن بن السيد محمد أمين بن السيد علي المرغني بن السيد حسن بن ميرخورد بن حيدر بن حسن بن عبد الله بن علي بن حسن بن السيد حيدر ابن ميرخورد بن حسن بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن يحيى بن حسن بن بكر بن علي بن محمد بن إسماعيل بن ميرخورد البخاري بن عمر بن علي بن عثمان بن علي المتقي بن الحسن الخالص بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وابن الزهراء البتول.

وفي مقدمة كتابه (لؤلؤة الحسن)، حمد السيد جعفر الميرغني الله تعالى الذي جعلهم منتمين إلى أهل البيت المطهر بنص الآيات القرآنية، ومن الذين أودع الله فيهم سر النبوة، وشفعهم في أمة جدهم محمد ﷺ فيقول: «وأشكره على أن دلنا بالتمسك والانتماء لخلاصة الوجود، المطهرين بنص الآيات تطهيرا سبق لهم في الأزل بخالص الكرم والجود، وأوجب لهم إنافة المقام، وعلو القدر في عالم الغيب والشهود، وصرخت بذكره ألسنة أفواه آية ﴿قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]، فبان بذلك رفع الشأن .. وأشهد أن لا إله إلا الله الحاكم بالتقدير لهذه النسبة في الدارين، المانح لهم الشفاعة في أمة جدهم سيد الكونين، المودع سر النبوة فيهم، فبه دائما صباح وجوههم مسفرة تقر برؤيتها كل عين».

وهكذا ينتسب الختمية – كما يقول أحد أتباعهم – إلى رسول الله ﷺ، من خلال الأئمة الاثني عشر، الذين التفّت حولهم الأمة الإسلامية بقلوبها وجوارحها في القرون الأولى من الإسلام بزعمه.

وبعد أن أورد هذا الكاتب سلسلة النسب أعلاه قال: وكما هو واضح من النسب أعلاه فإن السادة المراغنة ينتسبون إلى الأئمة الاثني عشر عظماء الأمة المحمدية ووارثي علم المصطفى وباب مدينة العلم «علي» وشهرتهم تغني عن التعريف بهم فقد كانوا أقمار السموات ونجوم الأرضين».

ومعلوم أن المراد بالأئمة الاثني عشر - في هذه الإشارة – أئمة الشيعة الذين يبدأون بعلي ثم الحسن والحسين، وينتهون كما يقول الشيعة بمحمد بن الحسن العسكري (المهدي الغائب أو المنتظر)، وعند هذا الأخير الثاني عشر تقف سلسلة الأئمة عند الشيعة، لأنه اختفى أو غاب غيبة صغرى ثم غيبة كبرى لم يظهر بعدها حتى الآن. ونسب الختمية بهذا التسلسل، ودعوة ارتباطهم بالأئمة الاثني عشر يثير عدة إشكالات، منها إن هذا النسب، لو صح في بدايته، فلا شك أنه في وقت متأخر قد اختلط ببعض الدماء الأعجمية، وما اسم ميرخورد، الذي ورد أكثر من مرة، واسم ميرغني الذي يقول المراغنة أنه اسم فارسي، أوضح دليل على ذلك.

وقد حاول الختمية أن يؤكدوا أن جذور الشيعة والصوفية واحدة، فزعموا أن كل الطرق الصوفية خرجت من مشكاة آل البيت وانتقلت من بلاد الشيعة إلى بقية أنحاء العالم الإسلامي، كما أن كبار الصوفية، في رأي الختمية مرتبطون بالشيعة وأئمتهم، فعبد القادر الجيلاني (ت: ٥٦١هـ) الذي تعود إليه كل الطرق الصوفية شريف من آل البيت

سنده في الطريقة إلى الأئمة الاثني عشر الذين هم أئمة الشيعة في كل شيء، والكرخي تلميذ الرضا، وأبو يزيد البسطامي تلميذ جعفر الصادق، ويحاول كاتب ختمي معاصر، هو صاحب كتاب (الختمية العقيدة والتاريخ والمنهج) أن يزين صورة الشيعة لدى الختمية، ويبرئهم من الأصول التي يقرون بها ويذهب إلى أن أعداءهم من بني أمية وبني العباس هم الذين شوهوا صورتهم وبدأ الناس يصدقون هذه الأكاذيب حولهم – ومن هنا بدأت الجفوة المفتعلة.

ويردد هذا الكاتب مزاعم الشيعة حول طائفتهم، مثل أن الخلاف مع الشيعة مجرد خلاف في وجهات النظر السياسية منذ فجر الإسلام، فهذا القول بأن الخلاف مع الشيعة مجرد خلاف في وجهات النظر السياسية، فهذا صحيح وينطبق على التشيع في بداياته الأولى، إذ كان الخلاف حول الإمامة، ولم يلبث هذا الخلاف أن تشعب وقاد في النهاية إلى تبني الشيعة آراء متعلقة بالقرآن وسلامة نصه من التحريف، والسنة ومدلولاتها وحجيتها والصحابة رضوان الله عليهم وأمانتهم في نقل هذا الدين، وتبنوا في كل هذه المسائل عقائد وآراء منحرفة عن الشرع ومخالفة لمعتقدات أهل السنة والجماعة.

ويؤكد الكاتب الارتباط الوثيق بين الشيعة والصوفية وتطابق المبادئ والأصول، «الحقيقة التي لابد من إدراكها أن الصوفية من أهل السنة هم الوجه الآخر للشيعة، فكلاهما مؤمن بولاية أهل البيت مقر ببيعة لإمام قائم يسعى لتطبيق الشريعة بالإضافة إلى تطابقهما في مسألة السلوك على الشيخ المرشد».

وإذا كانت الأصول والمبادئ متوافقة، والغايات واحدة، فينبغي تضافر الجهود بين الفئتين من أجل البعث الإسلامي: «إن مظاهر الوعي الإسلامي تؤكد حتمية التقاء الصوفية من أهل السنة والشيعة، للتقارب العظيم في كل شيء ووحدة المصير والمبدأ والهدف»، ويدعي هذا الكاتب أن البعث الإسلامي لن يكون إلا على يد المؤمنين بولاية أهل البيت (الشيعة والصوفية) «إن البعث الإسلامي لن يأتي إلا عن طريق المؤمنين بولاية أهل البيت وذلك لأن الرسول ﷺ حين ذكر مهدي آخر الزمان ذكر أنه من آل البيت، وهكذا فإن البعث القادم لن يكون إلا على أيدينا، وفي قول الرسول ﷺ الذي ذكرنا إشارة واضحة إلى أننا أصحاب البعث الإسلامي في الأمة المحمدية».

من السرد السابق يتبين لنا مدى الصلة بين الطريقة الختمية وبين الفكر الشيعي والحركة الشيعية المعاصرة. وأن طائفة الختمية تبنت فكرة الشيعة حول آل البيت وارتباط هذا التصور بقضية الإمامة وأن الختمية استندوا للأدب الشيعي وحجج الشيعة وبراهينهم لإثبات أحقية أهل البيت بالولاية والإمامة، سعيا منهم لإثبات هذا الحق لمشايخهم، وكذلك فسروا تاريخ الإسلام بمثل ما فسره به الشيعة وربطوا تاريخ طائفتهم بتاريخ الحركة الشيعية عن طريق الربط بين أصول التصوف والتشيع من ناحية، وعن طريق ربط حركة البعث الإسلامي وقصرها على الطائفتين المؤمنتين بولاية أهل البيت كما يزعمون من ناحية أخرى. وهذا كله يؤكد تسرب الفكر الشيعي إلى الطريقة الختمية، وتأثرهم بفكر الشيعة وحركاتهم المعاصرة.

المراجع:

١- كتاب المدخل إلى فهم ودراسة الطريقة الختمية، أحمد عبد الله عثمان.

٢- الطريقة الختمية، مادة موجودة على موقع الدرر السنية، على الرابط: http://www.dorar.net/enc/firq/2694 .

٣- طائفة الختمية أصولها التاريخية وأهم تعاليمها، أحمد محمد أحمد جلي، بيروت، دار خضر للنشر والتوزيع، ط أولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

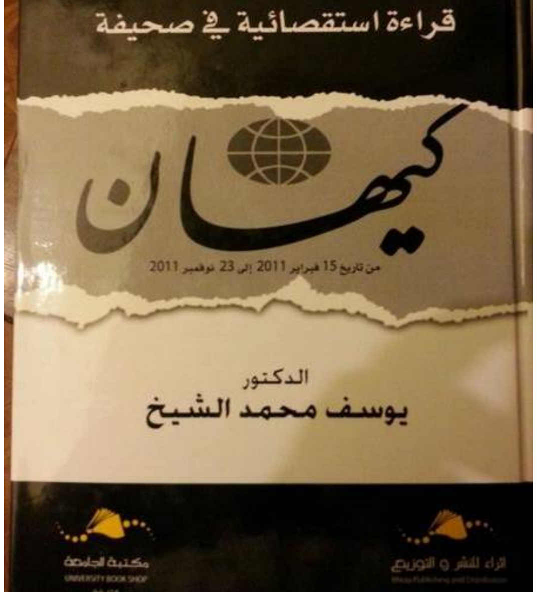
٤- الختمية: العقيدة والتاريخ والمنهج، محمد أحمد حامد محمد خير، الخرطوم، دار المأمون، ط ثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٥- الطريقة الختمية في السودان بين الدين والسياسة، مقال كتبه محمد زين العابدين عثمان، صحيفة الشرق الأوسط، بتاريخ: ١ سبتمبر ٢٠٠١ ، العدد ٨٣١٣.

دوائر نفوذ الولي الفقيه
قراءة استقصائية في صحيفة كيهان

عرض: أسامة شحادة(*) – خاص بالراصد

هذا سِفر ضخم يصل مع مَلاحقه إلى ١٠٠٠ صفحة، بذل فيه مؤلفه الدكتور يوسف محمد الشيخ جهداً ضخماً ومتنوعاً، فقد لخص العقيدة الشيعية وأوجز تاريخ الثورة الإيرانية، ثم رصد صحيفة «كيهان» الإيرانية، التي تعد لسان النظام الإيراني، في الفترة من ٢/١٥ – ٢٠١١/١١/٢٣، وهي فترة أحداث البحرين التي حاولت استغلال حالة الربيع العربي لتحقيق الأجندة الإيرانية بابتلاع البحرين، وكانت حصيلة أكثر من ٥٠٠ عنوان بين مقالة وخبر وتحليل، وقد ترجمها المؤلف بنفسه، وهذا بحد ذاته جهد ضخم. صدر هذا الكتاب مطلع العام ٢٠١٥، عن دار إثراء بالأردن، ومكتبة الجامعة بالشارقة.



قام المؤلف بتحليل لمضامين هذه العناوين وتوزيعها بشكل منطقي على نموذج بناه المؤلف لفهم آلية عمل إيران في تصدير الثورة، سواء تصديرها بالشكل الثوري أو بالشكل الثقافي والغزو الناعم، وقد طبق ذلك على البحرين كنموذج عملي.

وهذا النموذج (دوائر نفوذ الولي الفقيه) هو أهم ما في الكتاب، والذي بسببه يمكن أن أعتبره مِن أهم ما كتب في تحليل سياسة إيران في تمددها وغزوها للبلاد والمجتمعات المسلمة، وطريقة تعاملها مع ثغرات النظام الدولي في العلاقات السياسية لتحافظ على نفسها وتوسع دائرة نفوذها وتأثيرها دون أن تصطدم بالقوى الغربية.

(*) كاتب أردني.

لقد استغرق المؤلف في إنجاز هذا الكتاب ١٥ شهرا من التفرغ التام، وأقدم الشكر مع المؤلف لوالده الذي تكفل به ماليا لإنجاز الكتاب، وكانت النتيجة كتابا يعدّ مرجعا في بابه، ويمكن النسج على منواله في كشف جرائم وخداع إيران وأتباعها في غزو البلاد العربية ومحاربتها، فيمكن أن يطبق نموذج دوائر النفوذ الإيرانية الذي ابتكره المؤلف على الثورة السورية، أو على مخططاتهم لهدم الدولة السعودية، وغزو الأردن ومصر، وغيرها من البلاد، وقد كان هذا التطبيق جزءا من خطة المؤلف (ص ٧٠٥) لكن ضيق الوقت حال دون ذلك، كما أنه كان يتمنى أن يتحدث عن جوانب الضعف في بنية الدولة الإيرانية والتي لا تجد من يستغلها في مقاومة العدوان الإيراني مع الأسف، والواجب على العقلاء من المسؤولين والعلماء رعاية مثل هذا المؤلف لإكمال جهوده البحثية القيمة التي تخدم الأمن القومي لأوطاننا والسلامة الدينية والمجتمعية لشعوبنا من نظام طائفي شمولي إرهابي.

وقد كانت تعليقات المؤلف وربطه لبعض الأحداث ما يكشف عن متابعة قوية لسياسات إيران ومقدرة عميقة على فهم حقيقة غايات نظام الملالي في طهران.

نموذج دوائر نفوذ الولي الفقيه:

بين المؤلف أن الشيعة الإمامية تعتقد أن قيادة الناس موكولة للأئمة المعصومين نيابة عن الله عز وجل، ثم جاء الخميني وأضاف أن الفقيه ينوب عن الأئمة في زمن الغيبة، وأن من يرفض هذا يعتبر مشركاً بالله عز وجل!! ولذلك فإن الدستور الإيراني يجعل للقيادة السياسية في إيران حالة من التقديس باعتبارها جسرا للانتقال إلى مرحلة ظهور إمام الزمان، وهو ما صرح به الرئيس الإيراني السابق أحمدي نجاد عدة مرات، وأن وظيفة إيران اليوم بقيادة الولى الفقيه التمهيد لقيام الحكومة العالمية بقيادة المهدي إمام الزمان بعد فشل الماركسية التي خرجت من التاريخ والليبرالية التي ستلحق بها قريبا، وأن حكومة المهدي هي الحل لمشاكل العالم، وللتمهيد لهذه الحكومة العالمية، فإن الولي الفقيه يعمل من خلال عدة دوائر، وهذه الدوائر هي:

١- دائرة الروحانية: ويقصد بها المؤلف طبقة رجال الدين الشيعي من المراجع والآيات المدرسين والخطباء والطلبة في الحوزات الشيعية.

وذكر المؤلف أن الخميني بعد انتصاره قسّم المجتمع الروحاني إلى ثلاثة أقسام: الروحانية المبادرة، وهي التي ناصرته وناضلت معه، والروحانية المتحجرة والرجعية، وهي التي عارضت الثورة على الشاه والملَكية وأن هذا لا يجوز في زمن الغيبة، والروحانية السلطوية، وهم المقربون من الشاه كشريعتمداري.

فقوّى الروحانية المبادرة التي ناصرته، وأضعف القسمين الآخرين، وأوكل للروحانية المناضلة بعث ثورة ثقافية في كافة أنحاء البلاد، والمجتمعات الشيعية في الخارج، وهي بمثابة قلب جهاز الدعاية للفكر السياسي الشيعي المعاصر.

وهؤلاء ينتشرون في كل مفاصل الشعب الإيراني والمجتمعات الشيعية خارج إيران، في الحوزات والمساجد، والجامعات، والجمعيات، والوزارات، والإعلام.

ويقسم المؤلف الروحانية الحالية في إيران إلى أربعة أقسام:

أ- الروحانية النشطة: وهم من استوعبوا المضامين السياسية لفكر الثورة والخميني، ولهؤلاء مشاركة بارزة في النظام والدعاية له واتخاذ القرارات، وهم صنفان: صنف مع صفتهم الدينية لهم مناصب سياسية أو إدارية في الدولة والنظام،

كأعضاء مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور والحكومة، وصنف يشارك في دعم النظام من خارج بنية الدولة، وهم إما مجموعات منظمة كـ «مجتمع الروحانية المناضلة» و«مجمع الروحانيين المناضلين» ولهم دور بارز في مسيرة الانتخابات دوما.

وصنف ثان يتكون من أفراد وجماعات غير منظمة اكتسبت مكانتها من علاقتها بالخميني، وهي تدافع عن النظام وتشارك فيه للحفاظ على مكاسبهم الشخصية بالدرجة الأولى، ولعل هاشمي رفسنجاني من أوضح الأمثلة على ذلك.



ب- الروحانية الداعمة: وهي التي لا تشارك في صنع القرار والسياسة، ولكنها تصوت وتناقش القضايا العامة، لكن إذا تعرضت مصالحها للخطر، تحركت ودافعت عنها من خلال تجمعات مؤقتة، وقد تعارض جزئيا بعض سياسات النظام إلا أنها تواليه، ومن هؤلاء المرجعيات الدينية الموالية للنظام في داخل إيران: آية الله كلبيكاني والهمذاني، ومن خارجه: عيسي قاسم بالبحرين والسيستاني بالعراق.

ت- الروحانية الخاملة: وهم من العازفين عن السياسة وقد أضعفهم الخميني كثيراً.

ث- الروحانية المعارضة: الذين لهم آراء ومواقف معارضة للنظام كآية الله منتظري، وهم محاصرون بشكل كبير.

ومهمة هؤلاء الروحانيين هي نشر مواقف وإرشادات الولي الفقيه السياسية والدينية بين الجماهير، والبحث عن الكوادر الجيدة، والمتابعة العقائدية للعاملين في مؤسسات النظام.

٢- دائرة الحرس الثوري وجهاز الاستخبارات: التي قامت بديلا ثوريا عن جيش الشاه ومخابراته، والتي ينص الدستور الإيراني على أن أمانة «الحفاظ على الثورة وثمارها تبقى عهدة هذا الكيان»، وتتنوع مهامها بين مهام عسكرية ومهام أمنية ومهام مخابراتية وأنشطة ثقافية.

٣- دائرة الباسيج: وتعني كلمة الباسيج: الجاهزية، وهي تابعة للحرس الثوري، لكن يمكن القول إن الباسيج هو الذارع التنفيذي التطوعي للحرس الثوري الذي يعد القيادة والعقل للباسيج، وهو يعمل على استقطاب الشباب لخدمة النظام من خلال تعبئة عقائدية ومنحهم بعض الامتيازات، وقد تم نقل الفكرة للمجتمعات الشيعية خارج إيران كما في العراق والبحرين واليمن ولبنان والكويت، وهو ما يظهر في التجمعات الشيعية من لجان النظام، أو في الاشتباكات من خلايا الصدام والتخريب.

وهي تستقطب كافة الشرائح كالأطباء والتجار والطلبة وغيرهم، وأعدادهم ضخمة، ويوكل لهم مهام الدعاية لنظام الولي الفقيه، ومواجهة الانحرافات والمعارضين للولي الفقيه مهما كان منصبهم كما حدث مع رفسنجاني وخاتمي

وموسوي، وتكوين جيش شعبي، وتنظيم الخدمات الاجتماعية في الكوارث.

٤- دائرة الإعلام: والإعلام حسب نص الدستور الإيراني يقع ضمن سلطات الولي الفقيه، وينقسم لإعلام داخلي وخارجي، وهو يحرص على التحكم بما يعرض للمواطن الإيراني، ولكن موجة الإعلام الحديث كسرت حصار الولي الفقيه على الإعلام الوافد للمواطن الإيراني.

فلجأ النظام إلى إقناع الإيرانيين أنهم يتعرضون لغزو إعلامي ناعم يحرف الوقائع، ومن ثم يقدم هو رؤيته للأحداث على أنها الحقيقة تحت عناوين جذابة بمختلف الوسائل والأدوات الإعلامية.

أما إعلامه الخارجي الذي يشمل ما يمتلكه مباشرة أو ما تملكه المجتمعات الشيعية الخارجية من وسائل إعلامية، فهو يتّبع فيها سياسة التحضير الجيد للأسئلة والاشكالات المتوقعة، والتركيز على النقاط الفرعية الخارجة عن الموضوع.

٥- دائرة السلطة التشريعية ودائرة السلطة التنفيذية: وهي تقع تحت نفوذ الولي الفقيه، ويعمل من خلالها على توزيع الأدوار في السياسة الداخلية والخارجية.

٦- دائرة المستعمرات: وهي الدول التي نجح النظام الإيراني على إلحاقها به، ويتمثل ذلك بالعراق ولبنان بوضعه الحالي، وهو من خلالها يقوم بخرق الحصار الدولي عليه، وتشكيل حليف له في المحافل الدولية.

٧- دائرة الأتباع: وهم المؤسسات والمجتمعات الشيعية الموالية له خارج إيران، ولم تصل لحد السيطرة على الدولة التي هي فيها، ويتمثل هذا بشيعة الخليج واليمن وأفغانستان وباكستان.

وهي تضم أحزابا سياسية، ومجموعات إرهابية متطرفة، وجمعيات حقوقية ونقابات، ووسائل إعلام متنوعة.

٨- دائرة الحلفاء: وهم غير الشيعة من الأحزاب والمجموعات الانفصالية والأقليات والطوائف الدينية ومؤسسات مجتمع مدني، تكون غالبا باحثة عن سند للحصول على مكاسب داخلية، ويهدف النظام الإيراني من التحالف معها إلى التأثير في القرارات الداخلية تجاه حماية نفوذه وأتباعه، والتأثير في القرار الخارجي تجاه تحقيق مصالحه.

٩- دائرة الأصدقاء: وهي مجموعة الدول التي تنافس أمريكا وتشارك إيران في الخصومة معها، مثل روسيا والصين وبعض دول أمريكا اللاتينية.

١٠- دائرة الشخصيات: يهتم النظام الإيراني بالشخصيات العامة، ويسعى للحصول على تعاطفهم وولائهم بشتى الطرق، لما لها من تأثير على الداخل والخارج.

ومن خلال هذه الدوائر يقوم النظام الإيراني بتحقيق أهدافه سواء في التوسع على حساب جيرانه كما في العراق ولبنان وسوريا والبحرين واليمن والخليج، أو في صد الهجمات ضده من خصومه، وقد تمكن النظام الإيراني من تسخير هذه الدوائر بالإضافة لمعرفته بثغرات النظام الدولي من تجنب كثير من القرارات الدولية الصعبة ضده، وتعويم النظام السوري المجرم، والتعمية على الأوضاع الطائفية البشعة في العراق ولبنان.

تطبيق النموذج على أحداث البحرين:

بعد أن شرح المؤلف دوائر نفوذ الولي الفقيه، قام بتطبيق هذا النموذج على أحداث البحرين من خلال أخبار جريدة كيهان، كلسان معبّر عن النظام الإيراني، وفعلا تمكن المؤلف من رصد تناغم عمل هذه الدوائر بشكل مثالي من مختلف الدول سواء في إيران أو البحرين أو لبنان أو العراق أو الكويت أو السعودية أو اليمن، مما يكشف بوضوح عن تبعية المجتمعات الشيعية في بلادنا

للنظام الإيراني بوضوح.

وقد استغرق هذا التطبيق للنموذج على حالة البحرين القسم الأكبر من الكتاب، وهو مليء بالملاحظات والتنبيهات والتعقيبات الذكية التي تفضح المشروع الإيراني الزاحف تجاه دول الجوار.

يمكن أن نلخص جوهر التطبيق على حالة البحرين بالنقاط التالية:

منذ بداية الأحداث في البحرين والتي قادها الباسيج البحريني عبر الاصطدام بالشرطة واحتلال دوار الخليج العربي وتعطيل المرور والسيطرة على مستشفى السلمانية والاعتداء على المواطنين والمقيمين، دعمت الروحانية في البحرين الأحداث، ثم تفاعل معها حسن نصر الله من لبنان في دعم الأحداث، ثم جاء الدعم من إيران، وصُورت البحرين على أنها موطن إبادة طائفية ومجازر مروعة، فصدرت فتاوى المراجع الكبار كمكارم الشيرازي والنوري الهمذاني والكلبايكاني والسيستاني في تأييد الأحداث ووجوب نصرة شيعة البحرين (لماذا فقط يتم إدانة فتوى دعم ثورة سوريا من قبل الإعلام العربي؟)، وقامت الروحانية في إيران بتنظيم مسيرات دعم لأحداث البحرين.

وقام الباسيج الإيراني بتنظيم تجمعات عدة أمام سفارتي السعودية والبحرين ومكاتب الأمم المتحدة، وندوات ومؤتمرات، ترسخ الدعاية الكاذبة للنظام وفتاوى الروحانية الطائفية!

وقد استغلت الحكومة الإيرانية غوغائية الباسيج لتطالب العالم والأمم المتحدة بالتدخل في البحرين بدعوى ضغط الشارع الإيراني عليها!!

وهنا يظهر دور الأتباع في البحرين وخارج البحرين، ففي البحرين استمر الروحانيون بالتحريض على العنف، والباسيج البحريني بالتنفيذ للتحريض.

أما الأتباع خارج البحرين فقد قام الحقوقيون منهم بالاستجارة بزملائهم في العالم، وقام البرلمانيون بمخاطبة قرنائهم، وقام الإعلاميون بالتزوير الفاضح للواقع، (وتذكر أن كل ذلك تزامن مع تورط إيران وحزب الله بقمع الثورة السورية).

قام مجلس الشورى الإيراني بتبني مطالب الشعب الإيراني بنصرة الشعب البحريني فراسل برلمانات العالم لرفع الظلم عن شعب البحرين! كما أصدر توجيهات للحكومة الإيرانية للعمل لنصرة الشعب البحريني (ليس تدخلاً في شؤون الغير).

فقامت الحكومة الإيرانية بإصدار بيان شجب واستنكار للاحتلال السعودي للبحرين! وأجرت اتصالات دبلوماسية مع دول عديدة بخصوص البحرين.

وهنا تحركت المستعمرات وخاصة العراق لنصرة الشعب البحريني، حيث قامت الأحزاب الشيعية بدعم أحداث البحرين، وكذلك الإعلام التابع لها وكذلك الحال مع حزب الله في لبنان.

أما دائرة الحلفاء فلم تجد إيران في البحرين إلا جمعية سياسية واحدة علمانية التوجه وذات جذور يسارية تؤيد إيران في موقفها (لماذا تجنب المؤلف ذكرها بالاسم؟) لتستغلها إيران في نفي الطائفية عن الأحداث.

أما دائرة الحلفاء خارج البحرين فكانت من المؤسسات الحقوقية التي لها صلة بالمؤسسات الحقوقية الشيعية، والتي نقلت رواية الشيعة المغلوطة للإعلام والعالم والمؤسسات الدولية.

وتأتي دائرة الإعلام التي قامت بتضخيم أحداث البحرين وتصويرها على أنها مجزرة طائفية لا مثيل لها، حيث اعتمدت على الصوت الشيعي وغيبت الصوت الحكومي أو السني الأهلي.

هكـذا كـان عمـل نمـوذج دوائـر نفـوذ الـولي الفقيـه في أحـداث البحـرين علـه يـستطيع ابـتلاع البحـرين تحت غطـاء الربيـع العربـي، وقـد كـان لهـذا الجهـد الخبيـث تـأثير في الواقـع الـدولي، ولـولا عنايـة اللّٰه عـز وجـل وجهـود المخلـصين لـتم ابـتلاع البحـرين من قبل الولي الفقيه.

فقـد تمكـن الـولي الفقيـه مـن اسـتغلال الأمـم المتحـدة لتـبني قـضية شـيعة البحـرين وتـصديق روايـة المعارضـة الـشيعية، وكـادت تقبـل مطالبـة الـشيعة بتـدويل الخـلاف، لقـد سـعت طهـران عـبر دوائـر نفوذهـا لجـرّ الحكومـة البحرينيـة إلى التفـاوض مـع المعارضـة الـشيعية بوصـفها ممثـل الـشعب البحـريني في إقـصاء تـام للـسنة الـذين يـشكلون نـصف الـسكان على الأقل.

وكـان الـسيناريو المعـد هـو أن يواصـل البـسيج البحـريني التـصعيد، فتقابلـه القـوات الحكوميـة بـالعنف، ممـا يـسرع بتـدويل الخـلاف، وإذا تعنتـت الحكومـة في قبـول مطالـب المعارضـة الـشيعية تحـت ضـغط مجلـس الأمـن، أن يـتم اسـتدعاء وسـيط لتقريـب وجهـات النظـر، وطبعـا سـتكون إيـران أو العـراق هـي خيـارات المعارضـة، وإذا تعـذر هـذا سـيطرحون دولـة صـديقة لإيـران مثـل روسـيا أو الـصين، وعلـى أسـوأ الأحـوال سـتكون أمريكـا هـي الوسـيط، ورغـم الخـصام بـين أمريكـا وإيـران فإنهمـا قـابلان بعقـد صـفقة علـى حـساب البحـرين لحـسابهما، وقـد اجتمعـت المعارضـة الـشيعية بالأمريكان عدة مرات خلال الأحداث.

ولكـن قبـول الحكومـة - بعـد أن تنبهـت للمكيـدة- بلجنـة تقـصي حقـائق بتعـاون بـين الملـك والأمـم المتحـدة تحـت إشـراف خـبراء دولـيين، أحـبط مخطـط إيـران الـتي كانـت تـسعى للجنـة منحـازة للمعارضة من أصدقائها.

وقـد كـشف تقريـر اللجنـة مقـدار الكـذب والتزويـر الـذي مارسـته المعارضـة البحرينيـة والحكومـة الإيرانيـة مـن جهـة، ومقـدار الجـرائم الـتي ارتكبها الباسيج الإيراني.

لقـد تم إحبـاط هـذا المخطـط لكـن هـل تم تغـيير العقليـة الـسياسية تجـاه الخطـر الـشيعي والإيرانـي علـى البحـرين وبقيـة دول الجـوار؟ للأسـف أن هـذا لم يحدث!

توصيات:

يـستحق الكتـاب مـن البـاحثين أن يطـالعوه ويطـوروا نظريتـه ويطبقوهـا علـى أمـاكن أخـرى، كمـا يـستحق الكتـاب أن يُعمـل لـه ملخـص أو مهـذب بـسبب ضـخامة حجمـه مـن جهـة، كمـا قـد يـسبب ترتيـب المؤلـف نوعـا مـن الارتبـاك للقـارئ المتعجـل، وهـذا الملخـص يحتاجـه الـساسة والمثقفـون فهـو يقـدم فيـه نمـوذج عمـل الـسياسة الإيرانيـة والثغـرات الموجـودة في نظامنا والتي تنفذ منها دوائر نفوذ الولي الفقيه.

كمـا يجـب حـث المؤلـف علـى اسـتكمال بحثـه عـن ثغـرات النظـام الإيرانـي وكيفيـة اسـتغلالها، والخلاصـة المكثفـة مـن هـذا الـسفر الكـبير: قـوة إيـران في ضـعفنا وتـشتت جهـدنا وغيـاب رؤيـة صـحيحة للخطر الإيراني في دوائر صنع القرار عندنا.





أخطر من داعش

قالوا: المشروع الإيراني للاستيلاء والشرذمة سابقٌ على المشروع «القاعدي» و«الداعشي». ونجاحاته الظاهرة سببها أنّ الأنظمة والشعوب ما اتخذت مقاومتها له سِمة الشمول والاتّساق. وذلك لسببين: أنّ المنفذين المباشرين هم من أهل البلاد، وقد كان هناك اعتقاد أنّ وطنياتهم ستتغلب على مذهبياتهم. كما أنّ فئات شعبية عربية اغترت بعدائها الظاهر لإسرائيل، بحيث بدا ذلك باعتباره وظيفتهم الوحيدة. وما أزال أرى أنه رغم فظاعة «الداعشيات» وأشباهها؛ فإنّ فُرَص القضاء عليها أوضح وأرجح لأنّ الأنظمة والجمهور الأعظم واجهها من البداية من دون أوَهام!

رضوان السيد

– الاتحاد الإماراتية ١٨/١/٢٠١٥

وشهد شاهد من أهلها

قالوا: هناك جوانب عدّة للموضوع. أولا، أنتَ شارلي؟ إنّ هذا الإعلان يعني بما لا يقبل الشك أن التضامن مع ضحايا المجزرة (وهم حتماً ضحايا لإرهابيّين لا يتورّعون في سوريا وفي لبنان عن قتل أبناء وبنات جلدتهم ودينهم) يجب أن ينعكس تضامناً مع مجلّة «شارلي إبدو». لكن لو أن مجلّة معادية لليهود تعرّضت لعمليّة اعتداء، هل كان تجرّأ مثقّف عربي واحد على إعلان تضامنه مع تلك المجلّة؟ هل كان مثقّف أو كاتب عربي واحد تجرّأ حتى على إعلان تأييده لحريّة التعبير لمعادي اليهوديّة؟

(العلماني) أسعد أبو خليل

- عربي ٢١ - ١٧/١/٢٠١٥

هل نقدم المصلحة العليا على المصلحة الخاصة؟

قالوا: صحيح أنّ عدد الشهداء الكبير والأعداد المتزايدة من المعتقلين ممن ينتمون إلى خطهم في مصر تضغط عليهم للحصول على نتائج سريعة في الساحة المصرية، وتعقّد الأمر بالنسبة لهم وتجعل موقفهم أكثر حرجاً وصعوبة وتسلبه القدرة على المناورة، لكن النفس الطويل مطلوب، والمنطقة مقبلة على تحولات أكبر من دون شك، كما أنّ المعطيات الموضوعية (صعود حركات السلفية الجهادية والخطر الإيراني)، تفترض أن هناك حاجة إلى دور ما لحركة الإخوان المسلمين في مواجهة هذين التهديدين، وهو الأمر الذي قد يشكّل باباً للتواصل أيضاً مع الأطراف الإقليمية المعنية

بمعنى آخر، قد تنشأ حاجة متبادلة لدى كل من السعودية والإخوان للتقارب على قاعدة هذه الملفات الإقليمية، كما أنّه في حال تحقق التقارب الخليجي- التركي، قد يضطر الإخوان في جميع الأحوال إلى الانحناء، لذلك سيكون من الأفضل فتح قنوات تواصل من الآن أو على الأقل عدم إغلاق الباب أمام إمكانية حصول مثل هذا الأمر، وسيكون هناك دوماً في هذه المعادلة لاعبون عقلاء يحاولون رأب الصدع، ولاعبون متهورون قد يرون في حصول مثل هذا الأمر خطراً على وضعهم. لكن

باعتقادي أنّه وبقدر ما يقترب الإخوان من تفهّم هذا الخطر، بقدر ما كان الانفتاح عليهم بالمقابل ممكناً أكثر، وبقدر ما كان تقرّبهم من هذا الخطر أكبر، بقدر ما كانت الانعكاسات السلبية عليهم أكبر خلال المرحلة المقبلة، على الأقل بانتظار ما سينجم عن المفاوضات الأمريكية – الإيرانية من نتائج.

علي باكير

- عربي ٢١ - ٢٠١٥/١/١٧

يا راجل وده اسمه كلام؟

قالوا: إن ملكة بريطانيا، إليزابيث الثانية، من«آل البيت»، وإن شخصًا يدعى الهاشمي هو جد إليزابيث الثانية، وأنها لم تُسلم؛ لأن الإنجليز أرغموا جدها عنوة على التنصر.

وخلال لقائه ببرنامج «والله أعلم» المذاع على فضائية «سي بي سي» المصرية الخاصة، السبت، أضاف أن إنجلترا قديمًا كانت لا توافق على إقامة المسلمين فيها، مشيرًا إلى أنها ألقت القبض على شخص يدعى «الهاشمي» من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وأرغموه على أن يترك الإسلام.

ولم يقدم دلائل على ما ذهب إليه في حديثه بشأن جد ملكة بريطانيا، ولم يذكر مراجع تاريخية وثّقت لما جاء على لسانه.

الدكتورعلي جمعة

- مفتي مصرالسابق-

مفكرة الإسلام ٢٠١٥/١/١٧

تسيس الدين علمانيا!

قالوا: أصرَّ نائب كويتي - أثار الجدل بحديثه أن شرب الخمور من عادات أهل الكويت - على تصريحاته، وقال: إن العديد من الشواهد تؤكد ما قاله.. مما أثار زوبعة من الردود عليه في مواقع التواصل الاجتماعي وكان غالبها مستنكرًا لما قاله أن الخمر في الكويت كان يباع بشكل علني في محل «جري ماكنزي» قرب قصر السيف (مقر الحكم في الكويت) في الستينيات قبل أن تغلقه السلطات.

وأوضح أن «التشريع الكويتي لا يجرّم شرب الخمر لكنه يجرم بيعه وإهداءه، والقانون يسمح للسفارات المسلمة وغير المسلمة في الكويت باستيراد حاجتها من المشروبات الكحولية».

وقال: إن الكويت أصبحت اليوم عاصمة للمخدرات بسبب منع الخمور متسائلًا: «ما الذي استفدناه الآن من منع الخمور؟».

ولفت إلى أنه لا يدعو لشرب الخمور، لكن هو مصرٌّ على أنها من «عادات وتراث الكويت».

النائب نبيل الفضل

- مفكرةالإسلام ٢٠١٥/١/٤

لو كان شارلي؟

قالوا: قضت محكمة بحرينية بتعديل حكمها الصادر ضد ناشط بحريني أدين بإهانة الصحابي خالد بن الوليد عبر تغريدة له للحبس ٤ أشهر بدلًا من ٦ أشهر.

ونقلت وكالة الأنباء البحرينية الرسمية، عن وائل بوعلاي- المحامي العام بالنيابة الكلية - : إن المحكمة الكبرى الاستئنافية/ الدائرة الثانية أصدرت في جلستها المنعقدة علنًا اليوم الخميس حكمًا بتعديل الحكم الصادر بحق أحد المتهمين بالحبس لمدة ٤ أشهر بدلًا من ٦ أشهر «لإهانته الصحابي الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنه».

وأشار إلى أن النيابة العامة سبق لها أن صرحت باستجوابها متهمًا قام بإهانة الصحابي الجليل والإساءة إليه بطريق العلانية، وأمرت بحبسه ٧ أيام احتياطيًّا على ذمة التحقيق في ٢٧ أغسطس.

مفكرة الإسلام- ٢٠١٥/١/١٥



هل التصوف "نصرنة للإسلام" حقا أم جزء من "أمركة للإسلام" هذا الدين؟

إحسان الفقيه – عربي ٢١ ٢٠١٥/١/٨

قالها أخي (علي عزت بيجوفيتش) يوما: (إن الفلسفة الصوفية والمذاهب الباطنية تمثل - على وجه اليقين- نمطا من أكثر الأنماط انحرافا، ولذلك يمكن أن نطلق عليها «نصرنة» الإسلام)..

أما إيريك جوفروا - صاحب كتاب (التصوف طريق الإسلام الجوانية) - فيقول: (السلطات السياسية في الغرب تشجع الصوفية وتدفعها لأن تكون المضاد الحيوي ضد ظاهرة الحركات الإسلامية ومختلف مظاهر التشدد الإسلامي لا في الغرب فحسب بل حتى في البلدان الإسلامية).

في البداية علينا أن نشير الى أن التصوف كاتجاه مضاد للترف قد نشأ في القرن الثاني الهجري،

وتحول مع مرور الوقت إلى زهد غير مشروع، ثم دخل في أخطر مراحله عندما امتزجت به الفلسفات الغربية وتمحور حول فكرة وحدة الوجود والحلول والإتّحاد، التي روجها رموز الصوفية مثل محيي الدين بن عربي والحلاج وابن الفارض وغيرهم.

ولقد اهتم الغرب –ولا يزال- بالتصوف ودراسته ودعمه نظرا لأنه يحقق له عدة مكاسب، أبرزها تمرير فكرة وحدة الأديان، والتي بموجبها تقتل التمايز لدى المسلمين وتذيب عقيدتهم في العقائد الأخرى، حيث إن عقيدة وحدة الوجود هذه ترى الوجود شيئا واحدا وهو الله تعالى، وكل ما في الوجود إنما هو صور له، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا، فلا فرق بين خالق ومخلوق ولا بين إيمان وكفر، فالأديان إذا عندهم شيء واحد.

وتتمثّل استفادة الغرب من دراسة ودعم التصوف، في أن الصوفيين هم أبعد الناس بالأساس عن السياسة والجهاد، بسبب قوادح عقدية لديهم في القضاء والقدر، والتوكل، فكانوا يرون في مواجهة الغزاة المستعمرين اعتراضا على قدر الله، بدلا من حمل السلاح ورفع راية الجهاد.

لذلك لم يكن غريبا أن جنود نابليون أثناء الحملة الفرنسية على مصر كانوا يتواجدون في الحضرات الصوفية.

ولم يكن غريبا أن اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر قد أنشأ لهم المجلس الأعلى للطرق الصوفية.

بل إننا لا نفتري الكذب إذ نقول إن الصوفية قد دعمت المستعمرين ومكّنتهم من البلاد، وقد يكفي الاستشهاد على ذلك بأول رسالة من المارشال «بوجو» وهو أول حاكم عسكري للجزائر إلى شيخ التيجانية في وقته.. وكان نصّ الرسالة يقول: (لولا موقف التيجانية المتعاطف لكان استقرار الفرنسيين في البلاد المنفتحة حديثًا أصعب

بكثير مما كان).

ومن الإنصاف أن نقول إن بعض الطرق قاومت المستعمرين كالحركة السنوسية في ليبيا، لكنها لم تصل إلى ذلك إلا بالخروج من قمقم الأفكار الصوفية العتيقة.

وفي القرن الماضي بعد إنشاء المراكز البحثية الغربية والأمريكية بصفة خاصة، والتي هي بالأصل مؤسسات استشراقية، كان للصوفية نصيب كبير من اهتمام تلك المراكز، ولا يخفى علينا قرب هذه المراكز من دوائر صناعة القرار، بل إنها تسهم في صناعته بما تقدمه من أبحاث ورؤى حول المسلمين واتجاهاتهم التي تخدم السياسة الأمريكية.

وأبرز هذه المؤسسات مؤسسة «راند» والتي قدمت عدة تقارير شكّلت نظرة الساسة الأمريكيين للعالم الإسلامي... تقرير لمؤسسة راند يقول: (يمثل الصوفيون التأويل المنفتح والفكري للإسلام، وينبغي أن يُشجع - بقوة- التأثير الصوفي على المناهج المدرسية والمعايير المعتمدة والحياة الثقافية في الدول التي تمارس تقاليد صوفية مثل أفغانستان أو العراق. ويمدّ التيار الصوفي من خلال أشعاره وموسيقاه وفلسفته جسوراً قوية تربط بين مختلف الإنتماءات الدينية).

ومن توصيات مؤسسة راند: (تعزيز مكانة المذهب الصوفي، وتشجيع الدول ذات التقاليد الصوفية القوية على التركيز على الجزء الصوفي من تاريخهم وإدراجه في المناهج الدراسية المعتمدة في المدارس، وشد الانتباه أكثر إلى الإسلام الصوفي).

إلا أن هذا الاهتمام الغربي قد تنامى عقب أحداث ١١ سبتمبر، حيث رأى الغرب وأمريكا أن في احتضان الفكر الصوفي ودعمه، عوض عن المواجهة الصريحة مع الإسلاميين، وأقوى الأسلحة لوقف المدّ الأصولي الإسلامي فكان الاتجاه نحو إبراز التصوف حتى يكون ممثلا عن المسلمين، بما يحمله من نزعة توافقية مع الغرب بغض النظر عن كونها تنسف أصولا عقدية.

ويكفي أن نعلم أن «محمد هشام قباني» شيخ الطريقة النقشبندية في الولايات المتحدة الأمريكية هو حلقة الوصل بين الإدارة الأمريكية والشعوب الإسلامية، وشارك في عدة اجتماعات مع الرئيس السابق بوش بعد أحداث «١١ سبتمبر» لتقديم الدعم في كيفية تصدي أمريكا لما أسماه «المدّ الوهابي».

وأصبح الخطاب الأمريكي يشتمل دائما على ذكر الصوفية عند الحديث عن الإسلام المعتدل، حتى عهد أوباما.

وقد أوصت لجنة الكونجرس التي تختصّ بالحريات الدينية، الحكومات العربية بتشجيع الطرق الصوفية، وذلك بناء على توصيات سابقة من مؤسسة «راند» الأمريكية.

وكان «فرانسيس ريتشاردوني» السفير الأمريكي السابق في مصر يحرص منذ بداية ٢٠٠٥م على حضور الاحتفالات التي تقيمها الطرق الصوفية بمولد السيد البدوي.

وسبق وأن نشرت جريدة الخليج الإماراتية، في ٢٠١٣/١٢/٣م، أن «جوزيف ستافورد» القائم بأعمال السفارة الأمريكية في السودان، قد أعلن أن واشنطن ترغب في الدخول للمجتمع السوداني المسلم عبر بوابة الطرق الصوفية.

ويكفي أن يعلم القارئ أن أمريكا تخصص جزءًا من أموال دافعي الضرائب الأمريكيين لترميم المزارات الصوفية والعناية بأضرحتهم، بالطبع ليس من أجل عيون المسلمين.

ولقد كان لهذا الإهتمام أثره في توجهات الصوفية أنفسهم، حيث أن الحقبة الأخيرة شهدت تطورا ملحوظا في المسار الفكري والسلوكي للصوفية، فبدأوا نتيجة توصيات من الكونجرس بالدخول في معترك الحياة السياسية وإنشاء أحزاب صوفية لمواجهة تيار الإسلام السياسي.

ولئن كان عموم المتصوفة لا يدركون أبعاد هذه العلاقة المشؤومة، فإن رموز التصوف على

الأقل يعلمون مغزى هذا الاهتمام الغربي بالتصوف، فهل يقبل هؤلاء المنتسبون للإسلام، بأن يكونوا شوكة في ظهور إخوانهم المسلمين مهما كانت الاختلافات بين الفريقين؟

وهل يقبل أولئك المتصوفة بأن يكونوا معبرا لترويج أفكار وقيم الغرب وأمريكا، وتمرير مخططاتهم؟

"داعش"... بين الثرثرة والدراسات الجادة

د. سنان أحمد – مجلة المجتمع ٢٠١٥/١/١١

تمتلئ صحفنا ومجلاتنا ومواقع الإنترنت وغيرها من وسائل الإعلام بألوف المقالات و«الريبورتاجات» حول الأحداث الجارية، ومعظمها لا يمتلك الحد الأدنى من المصداقية لعدم معرفة محرريها بمبادئ التاريخ والجغرافية والسياسة ولعبة المصالح المعقدة والتي تعتبر ركائز الكتابة في هذا المجال.

فقد أفاق العالم يوم ٢٠١٤/٦/١٠م على دوي سقوط الموصل ثاني كبريات المدن العراقية وواحدة من أعرق المدن في المنطقة على يد تنظيم «داعش» من دون سابق إنذار، لتتوالى الأحداث بعدها في المنطقة بشكل دراماتيكي وغامض لم يسبق له مثيل في التاريخ أمام تنظيم محكم له جذور عميقة في المنطقة، ويملك مقاتلين مدربين على مستوى عالٍ ولكافة أنواع الأسلحة والخبرة بشؤون الحرب.

فنحن لسنا أمام مجموعات مبعثرة كما صورتها لنا التقارير الساذجة، تنطلق بتأثير أيديولوجي معين، وإن الإرهاب الذي تمارسه ليس إلا إحدى الوسائل في تكتيكاتها المتبعة نحو أهدافها الغامضة، لقد ساهم في عدم تقدير خطورة هذا التنظيم تلك الدراسات السطحية والتافهة والتي أدلى بدلوه بها كل من هبَّ ودبَّ تحت تأثيرات عاطفية، وإرضاء لذوي الشأن وبدوافع غير مستندة إلى تقييمات علمية وموضوعية، وإذا بالناس في حيرة من أمرهم وأمام صدمة عميقة بدأت تتجلى شيئاً فشيئاً بمعرفة حجم التقصير في مواجهة هذا التنظيم وحجم الفساد خلف هذا التقصير.

إن ظاهرة «داعش» من أكثر الظواهر خطورة وغموضاً في التاريخ الإسلامي، لو أردنا وضعها بهذا الإطار فقط ولا يضاهيها خطورة إلا حركة القرامطة التي انبثقت من الباطنية الإسماعيلية في منتصف القرن الثالث الهجري وحركة الحشاشين الإسماعيلية في نهاية القرن الخامس الهجري والتي دوخت الشرق بعمليات الاغتيال والقتل، وحركة «داعش» تستغل ظاهرة استحضار التاريخ واستنساخه بشكل مشوه، مستغلة جهل الناس بالتاريخ والدين وتعلقهم العاطفي بشعارات برَّاقة كما تفعل باقي الحركات على الطرف الآخر؛ كـ«حزب الله»، و«أنصار الله»، وبسيناريوهات متباينة وكلها تصب في استغلال الدين لأغراض لا علاقة لها بالدين.

ولا يمكن لأي حركة أن تظهر على السطح بالطريقة التي ظهرت بها «داعش» ما لم يكن هناك من العوامل السرية الكامنة تحت الأرض والتي خططت لها عقول كبيرة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ومالياً، مستغلة حالة التشرذم والفساد التي تعيشها البيئة المستهدفة (العراق وسورية في هذا الحيز) لكي تنمو بها مثل هذه التنظيمات، ولا يمكن صب الأمور في خانة الحاضنة الشعبية كما يحلو للبعض أن يضع الأمر في هذا الإطار، فألمانيا في الحرب العالمية الثانية احتلت فرنسا برمتها بأقل من أسبوع و«إسرائيل» احتلت الضفة وسيناء والجولان في يونيو ١٩٦٧م بأقل من أسبوع ولم تكن هناك حاضنة علنية أو سرية.

في السابق، كان ضعف الدولة العباسية مبرراً لنشوء الحركات الباطنية وعلى الأخص القرامطة كما ذكرنا لنشر أفكارهم الهدامة وهدم الدين باسم الدين والذي كللوه بمهاجمة الكعبة عام

٣١٧هـ وتدنيسها وسرقة الحجر الأسود ويدعون بأنهم جاؤوا لمحاربة الوثنية!

إن معظم الذين كتبوا عن هذه الظاهرة لم ينتبهوا إلى عنصر «المؤامرة الكبرى» على المنطقة، وهي مسألة معقدة ومتشابكة تبدأ جذورها بمعرفة من كان يدخل سجن بوكا؟ وكيف يخرج منه؟ وماذا كانوا يتلقون داخل هذا السجن؟ وماذا يمارسون؟! ليصبحوا بعدها قادة ورؤوس «داعش».. إن حجم المؤامرة وخيوطها تظهر جلية في الغياب المبهم لمعسكرات ومقرات التنظيم بعيداً عن عيون الأقمار الصناعية قبل هجومها على الموصل، وماذا كانت تمارس في المنطقة المعنية التي تحتوي على عشرات الألوف من العساكر والمجندين الذين هربوا عند سماع الإطلاقات الأولى، فكانت المأساة كظهور تنين خرافي في زمن العلم والمعرفة.

إن الجانب الهوليودي في إخراج ظاهرة «داعش» كان ولا يزال حاضراً في أذهان من خططوا لهذه المسرحية الدموية العبثية. منذ أن صعد قائدها على منبر نور الدين بخطوات مسرحية مدروسة بإتقان، منتحلاً اسم الخليفة الراشد الأول، معيداً خطبته التي حفظها بإتقان مع حركات مسرحية نفذها بدقة متناهية، ثم توالت الحركات الهوليودية بطريقة القتل والإعدامات الهمجية على شاشات التلفزيون، وطريقة ذبح الصحفيين وقطع الرؤوس وتعليق الجثث في حين أن الرسول كان قد أمر بعدم التمثيل حتى بجثث الحيوانات، وسيكشف الزمن أن هذا الدعي ليس إلا واجهة باهتة لمن رسم له الدور وجهزه بالمال والرجال والفكر التضليلي الذي تم به خداع ألوف الشباب تحت راية الخلافة والجهاد، وبعدها ليعلن دولة مهلهلة تأخذ من الناس كل شيء تحت مسميات الزكاة والجزية، ولا تعطيهم أي شيء، وأنه لا يمثل في السلم التنظيمي إلا واحدة من الدرجات الواطئة فيه.

لقد بلغ التهافت الفكري عند بعض الكتاب أو ممن يتخيلون بأنهم محللون سياسيون مداه عندما يربط أحدهم هذه الحركة بقيام الدولة الأموية لمجرد انطلاقهما من أرض الشام والآخر يلقي باللائمة على أهل المناطق المنكوبة لعدم مقاومتهم لهذا التنظيم الذي حشدت له أربعون دولة أسلحتها المتقدمة لمحاربته ولله في خلقه شؤون!

لقد آن الأوان لأن نكون موضوعيين وعلميين، وفي نفس الوقت مخلصين لمبادئنا وإنسانيتنا عندما نكتب عن مثل هذه الحركات وبواقعية حتى لا نخرج من مأساة لنقع بأخرى كما جرت العادة.

ومن المضحكات المبكيات أن أحد المحللين على الطريقة البعثية ينفي دخول «داعش» لمدينة بيجي أصلاً ملمحاً أن مسألة إرجاعها إلا مجرد كذبة، فقد تعودوا على الأكاذيب التي قادت البلد لمهلكة وراء أخرى.

إن كتبة المقالات والأعمدة والعاملين في كل المجالات الإعلامية يجب أن يكونوا على درجة من الثقافة والمعرفة يستطيعون بها تحليل الظواهر الخطيرة مثل ظاهرة «داعش» وأخواتها حتى لا تتخدع بها الجماهير، وتقديم الأمور كما هي بعد معرفة بواطنها لا كما يشتهي هذا وذاك.

لقد صاحب ظهور الأحداث الجارية تهافتاً إعلامياً لا مثيل له، خصوصاً في القنوات والجرائد والمجلات الموالية للأطراف ذات الشأن، وتبريراً للهزائم التي لم تكن لتحدث لو أن الناس تعرف بواقع ما يجري على الأرض ومدى خطورته ولا تتفاجأ يومياً بخبر يقع عليها كالصاعقة.

لقد أصبحت كتاباتنا قريبة للثرثرة، وهي الكلام الفارغ الذي لا يعني إلا السير نحو التخلف.

هذا ما نعيشه في أيامنا هذه على المستويين الثقافي والسياسي إلا ما رحم ربي، وهي ثرثرة ثقافية - سياسية تدعو للحزن والبكاء قبل الضحك على ميزان «شر البلية ما يضحك».. وأخيراً لا تسألوا الطغاة كيف طغوا بل، اسألوا العبيد

كيف خضعوا.

لقد شملت هذه الثرثرة حتى الإعلام الأجنبي فراح ينشر التقارير من بوادر تكوين الدولة «الداعشية» لمجرد تمكنها من إحصاء السكان ومحلات إقامتهم، وما يتعلق بذلك متناسين أن كل المدن التي تحت سيطرتهم مشلولة شللاً كاملاً من ناحية الخدمات وكل مقومات الحياة الكريمة، لتمتد هذه الثرثرة إلى السيد «أوباما» رئيس أعظم دولة في التاريخ وخريج جامعة «هارفرد» الشهيرة؛ فراح يحذر المجتمع الدولي من خطورة امتلاك التنظيم للأسلحة النووية وشر الثرثرة ما يضحك!

"الإرهاب الجيّد" في سوريا والعراق

علي باكير – الجزيرة نت ٢٠١٤/١٢/٣٠

احتلت ظاهرة «المقاتلين الأجانب» خلال العام حيّزا هاما من الانشغال الدولي بها، ومخاطر تفاقم هذه الظاهرة وانعكاساتها المستقبلية على المستوى الإقليمي والدولي، ولأوّل مرة يتم حشد قرارات دولية لمواجهتها.

فالحملة الدولية التي تشنّ منذ عدّة أشهر ضد تنظيم الدولة «داعش» بقيادة الولايات المتّحدة بشكل أساسي تستند من الناحية القانونية إلى قرار مجلس الأمن رقم ٢١٧٠ المتخذ في الجلسة ٧٢٤٢ بتاريخ ١٥ أغسطس/آب ٢٠١٤، وقرار مجلس الأمن رقم ٢١٧٨ في الجلسة ٧٢٧٢ بتاريخ ٢٤ سبتمبر/أيلول ٢٠١٤. وقد صدر القراران تحت الفصل السابق من ميثاق الأمم المتحدة والذي يتضمن جواز استخدام القوّة ضد الأطراف التي صدر القرار بحقها وفق المادة ٤٢ من الفصل السابع.

القرار ٢١٧٠ طويل وفيه الكثير من التفاصيل، لكن المدقق فيه سيلاحظ أنّه خصص صفة «المقاتل الأجنبي»، لأولئك الذين انضموا من الخارج إلى ثلاثة أطراف فقط هي: تنظيم الدولة «داعش»، الذي كان معروفا آنذاك باسم تنظيم الدولة في العراق والشام، وجبهة النصرة، وتنظيم القاعدة، بالإضافة إلى أي جماعة ترتبط بشكل مطلق بتنظيم القاعدة.

ويعتبر أن تدفق مقاتلين أجانب إلى هذه التنظيمات أجج النزاع وساهم في إشاعة التطرف العنيف، ومطالبا هذه الكيانات الثلاثة بالكف فورا عن كل أشكال العنف وأعمال الإرهاب ونزع سلاحها وتسريح قواتها فورا، بالإضافة إلى مطالبته جميع الإرهابيين الأجانب المرتبطين بهذه الكيانات بالانسحاب فورا.

أمّا القرار ٢١٧٨ فإنه يسمي أيضا بالاسم التنظيمات الثلاثة السابقة الذكر، لكنه في المقابل يتضمن تعريفا واضحاً لماهية «المقاتل الأجنبي»، إذ يقول عن المقاتلين الأجانب، «أي الأفراد الذين يسافرون إلى دولة غير التي يقيمون فيها أو يحملون جنسيتها بغرض ارتكاب أعمال إرهابية أو تدبيرها أو الإعداد لها أو المشاركة فيها، أو توفير تدريب على الأعمال الإرهابية، أو تلقي ذلك التدريب، بما في ذلك في سياق النزاعات المسلحة». كما يطالب القرار المقاتلين الإرهابيين الأجانب بنزع أسلحتهم والتوقف عن جميع الأعمال الإرهابية والمشاركة في القتال في أي نزاع مسلح.

هذان القراران يتجاهلان ثلاثة عناصر أساسية تتعلق بالإرهاب في سوريا والعراق:

العنصر الأول: أنّ هذا الإرهاب هو نتيجة لاستخدام العنف من قبل أنظمة استخدمت الإرهاب ضد المواطنين العزّل، وبالتالي فإن هكذا قرارات تتعامل مع النتيجة وليس مع السبب.

العنصر الثاني: أن التطرف والتحول في شكل الصراع جاء نتيجةً لتدخل المقاتلين الأجانب الشيعة، وقد حذرت العديد من التقارير لا سيما في بداية اندلاع الثورة السورية وفي العام ٢٠١٢ من أن تدخل عناصر شيعية تابعة لإيران مباشرة أو لأذرعها في

المنطقة كحزب الله وكتائب أبي الفضل العباس سيخلق حربا طائفية، ويحول شكل الصراع ويغذي التطرف.

العنصر الثالث: أنّ التعريف الذي أطلقه قرار مجلس الأمن ٢١٧٨ على مصطلح «المقاتلون الأجانب» يتجاوز التنظيمات الثلاثة المذكورة في القرار، وينطبق تماما على التنظيمات الشيعية.

الاستنتاج الذي من الممكن أن نخرج به من هكذا قراءة يفيد بأنّ هذه القرارات مفصّلة على مقاس جماعة معيّنة، وبالتالي لا تهدف إلى معالجة المشكلة الحقيقية، فضلا عن موضوع تدفق المقاتلين الأجانب. ومن الواضح أنّ هذه القرارات شكّلت أساس الخطاب السياسي للمسؤولين الأمميين وحتى السياسيين في الدول المعنيّة بالملفين السوري والعراقي، لأنك عندما تجلس مع هؤلاء المسؤولين تلمس أن فهمهم عن «المقاتلين الأجانب» يكاد ينحصر تماما بهذه الكيانات الثلاثة، وأنّ مكافحة الإرهاب بالنسبة لهم هي مكافحة هذه التنظيمات فقط.

إن مثل هذا التعامل الانتقائي و«الأعور» إن صح التعبير ينسف مفهوم الحل من أساسه، ويعقد المشكلة بل ويزيدها. على سبيل المثال كان المنتدى العالمي لمكافحة الإرهاب قد أصدر خلال اجتماع عقد بين وزير خارجية الولايات المتحدة ووزير خارجية جمهورية تركيا في سبتمبر/أيلول الماضي، ولأول مرة، على الإطلاق (لائحة «الممارسات الحسنة» لرد أكثر فعالية على ظاهرة المقاتلين الإرهابيين الأجانب) وتتضمن ١٩ ممارسة حسنة تتوزع على محاور: كشف التطرف العنيف والتدخل ضده، منع وكشف والتدخل ضد التجنيد، كشف السفر، الكشف والاعتراض عند العودة.

ووفقا لهذه اللائحة فقد ورد في البند رقم ٥ أنه «يجب أن تتحاشى برامج مكافحة التطرف العنيف وأن تسعى للحيلولة دون ربط المقاتلين الإرهابيين الأجانب أو التطرف العنيف بأي دين أو ثقافة أو جماعة إثنية أو جنسية أو عرق. وفي سياق المقاتلين الإرهابيين الأجانب، هناك احتمالية قوية بشكل خاص لحدوث مثل ذلك الربط فيما يتعلق بالدين. إن مثل تلك الأساليب المتحيزة في التعامل مع التطرف العنيف ستقيد وجهات نظر أولئك المسؤولين عن وضع مبادرات مكافحة التطرف العنيف، ويمكن أن تسبب النفور لأفراد المجتمع المحلي الذين تعتبر تعاونهم هاما في إنجاح مثل هذه الجهود، كما يمكن استخدامها من قبل المجموعات الإرهابية المتطرفة كدعاية لتقويض هذه الجهود».

الفقرة الأخيرة غاية في الأهمية وتجسد لب الموضوع ولا يبدو أنّ المسؤولين الدوليين في صدد فهمها، ويدعم ذلك ما نُشر مؤخرا على سبيل المثال حول المبعوث الأممي دي مستورا، حيث اعتبر الأخير خلال لقائه مع عدد من المسؤولين رفيعي المستوى بأنّ «الميليشيات الشيعية المقاتلة في سوريا ليسوا مقاتلين أجانب على اعتبار أنّ النظام طلبهم»!، وهو ما يعطي انطباعا لدى المستمع بأنّ معيار تصنيف «المقاتل الأجنبي» يرتبط بطلب السلطات له أو عدم طلبها له، علما أنه وحتى في حال افترضنا جدلا صحّة هذا المعيار، فإنه لا يصح في حالة الأسد الذي لا يسيطر إلا على جزء بسيط من البلاد (حوالي الثلث وفق آخر التقديرات) لكونه نظاما غير شرعي ومتورطا في مقتل مئات الآلاف من المدنيين.

ولا يسري هذا الفهم المجتزأ لمصطلح «المقاتلين الأجانب» على هذه الشريحة الرسمية فقط، بل هناك على ما يبدو من يحاول أن يكرّس هذا الفهم الخاطئ في المجال العام، والمفاجأة أنّ هذه الجهود تأتي من قبل الجانب الأميركي مؤخرا. فعلى سبيل المثال انتشرت في الآونة الأخيرة مجموعة من الرسوم المعلوماتية (إنفوغراف) عن المقاتلين الأجانب، ربما أشهرها على الإطلاق تلك التي تتضمن رسما للكرة الأرضية وعليها خطوط من البلدان التي يأتي منها مقاتلون أجانب للذهاب إلى

سوريا مع أعداد مرتبطة بكل بلد.

لاقت هذه الرسومات رواجا كبيرا في وسائل التواصل الاجتماعي ونشرت أيضا في عدد من الصحف الأجنبية المعروفة كالواشنطن بوست. لقد لفت انتباهي أنّ البلدان والأعداد تتحدث على ما يبدو فقط عن المقاتلين من مذهب معيّن. فعلى سبيل المثال، لا يوجد في الخارطة إشارة على الإطلاق لأي مقاتلين أجانب من إيران، أما العراق فالرقم هو ٢٤٧ وأما لبنان فالرقم مثلا هو ٨٩٠.

وقد أثار هذا الأمر فضولي على اعتبار أنّه من المعروف والموثق وجود مليشيات إيرانية في سوريا، وأنّ عدد المليشيات العراقية التابعة لإيران أيضا يفوق بكثير هذا الرقم، وأنّ أعداد عناصر حزب الله التي دخلت من لبنان إلى سوريا بالآلاف، فكيف ولماذا يتجاهل الرسم ذلك؟ بحثت عن المصدر الأساسي للصورة، فوجدت أن مصدرها هو مجموعة صوفان» الأميركية، وعند البحث عن مديرها وجدت أن اسمه «علي صوفان» الذي عمل مع المخابرات المركزية الأميركية، وهو من أصل لبناني.

في مقابل كل ما ذكرناه، يتم تجاهل حقيقة وجود مقاتلين أجانب تابعين لإيران في سوريا والعراق كانوا ومازالوا السبب الأساسي والرئيسي لصناعة بيئة مثالية لإنتاج الإرهابيين، وتوليد رد الفعل الإرهابي واجتذاب المقاتلين من الخارج.

في سوريا وحدها، يحصي تقرير هام جدا صدر قبل عدّة أشهر عن الشبكة السورية لحقوق الإنسان ١٣ مليشيا شيعيّة عراقيّة تقاتل في سوريا، لعل أبرزها كتائب حزب الله ولواء أبو الفضل العباس ولواء كفيل زينب، وكتائب سيد الشهداء وفيلق الوعد الصادق ولواء الإمام الحسين، وغيرهم ممن يبلغ تعداد مقاتليهم بالآلاف، علما أنّ العدد ١٣ لم يشمل كل المليشيات الشيعية المقاتلة في سوريا، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن تقارير أخرى أوردت أسماء بعض المجموعات الشيعية المقاتلة، التي لم ترد في تقرير الشبكة السورية. هؤلاء مسؤولون عن جرائم ومجازر ارتكبت بحق الشعب السوري وتمّ توثيقها بالصور والأسماء والفيديو.

هذه الجماعات ومقاتلوها لا يخفون أنفسهم بل يفتخرون بما يقومون به. من يجنّدهم معروف ومن يموّلهم معروف ومن يسلحهم ويدرّبهم ويرسلهم للقيام بمهام إرهابية معروف، وبالرغم من خرقهم للوائح طويلة من العقوبات المفروضة على سوريا، وبالرغم من أنّ عددا كبيرا منهم أيضا تابع للحرس الثوري الإيراني، الذي تطاله وقياداته سلسلة عقوبات دولية، إلا أنّ هناك تجاهلا دوليا لهم، وكأنهم غير موجودين أصلا، علما أنّ فتاوى المراجع الشيعية العليا الإيرانية والعراقيّة العلنية سلاح هام في دفع الأتباع الشيعة للذهاب إلى سوريا للقتال.

ويعتبر آية الله علي خامنئي والدائرة المحيطة به من رجال الدين من أهم الذين حثّوا على القتال. أمّا في الجانب العراقي، فيعتبر آية الله قاسم الطائي من أبرز رجال الدين العراقيين الذين دعوا إلى تجنيد المقاتلين في صفوف المليشيات الشيعية للقتال في سوريا. بالإضافة إلى محمد اليعقوبي وصادق الحسيني الشيرازي، حتى أنّ بعضهم لم يخف علنا أنّ الموضوع لا يتعلق بحماية الأضرحة والمزارات، داعيا الشيعة إلى مقاتلة الكفّار (يقصد السنّة) كالمرجع كاظم الحسيني الحائري المقيم في قم الذي أكّد ذلك في فتواه.

وقد وردت أسماء أخرى عديدة لأشهر المراجع والمشايخ الشيعة الذين كانوا يدعون إلى القتال في سوريا ويحشدون المتطوعين الشيعة وينظمون المقاتلين للقتال إلى جانب النظام السوري، ومنهم: قيس الخزعلي وعلاء الكعبي والشيخ إبراهيم داوية والشيخ محمود العداي والشيخ عادل الجبوري وأبو علاء النجفي، وغيرهم الكثير.

أما في العراق، فالعصابات الإرهابيّة التابعة للمحور الإيراني تكاد لا تعد ولا تحصى، حتى أن

فيليب سميث المتخصص بالحركات الشيعية سمّاهم في مقال نشر في الفورين بوليسي «كل رجال آية الله» وعدهم بخمسين تنظيما، وهؤلاء ارتكبوا فظائع قبل وبعد ظهور تنظيم «داعش» ولا تقل عنه بشاعة أيضا بما في ذلك الاغتصاب وقطع الرؤوس والحناجر وحرق المعتقلين والجثث، وتفجير منازل المواطنين بعد نهبها وإهانة الرموز والشخصيات التاريخية للمسلمين، واختطاف وقتل المختطفين من السنّة رغم دفع الفدية التي يطالبون بها وقتل الأطفال.

وقد تحدّث تقرير مفصّل لمنظمة العفو الدولية نشر في أكتوبر/تشرين الأول الماضي عن جرائم الميليشيات العراقية، ولعل أكثرهم وحشية كتائب حزب الله- العراق، الذي تأسس بمساعدة حزب الله اللبناني عام ٢٠٠٧، وعصائب أهل الحق وكتائب بدر وجيش المهدي والحشد الشعبي وغيرهم، وبعضهم كحركة النجباء نشر مؤخرا صورا عن تسييرهم لطائرات بدون طيار في العراق، مليشيات تسير طائرات بدون طيار في دولة لها جيش وحكومة على ما تقول.

ولا نريد أن نتحدث عن خمسين ألف جندي وهمي اعترف رئيس الوزراء العراقي بأنهم غير موجودين فعليا، وغالبا ما كانوا يمثلون مثل هذه المليشيات حيث تدفع الرواتب وتعطى الأسلحة لهم ويقاتلون في مكان آخر.

الغريب أنّه لم يتم تجاهل مثل هذه الجماعات الإرهابية من قبل المجتمع الدولي فقط، بل إنّ الولايات المتّحدة تعمل معهم اليوم في العراق ضد تنظيم الدولة «داعش». وبالرغم من الإنكار العلني للإدارة الأميركية، إلا أنّ الوقائع أثبتت ذلك، كما حصل في معركة أمرلي في العراق مثلا.

كما أنّ عددا كبيرا من الخبراء الأميركيين يدركون ذلك، ومنهم من أدلى بشهادته أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الأميركي مؤكدا أن الولايات المتحدة أصبحت عمليا تعمل مثل هذه الجماعات الإرهابية، وبعضها مدرج على لائحة الإرهاب الأميركية نفسها.

باختصار، ما يجري الآن سيؤدي إلى نتائج كارثية فيما بعد، ولن تنحصر تداعيات ذلك بالتأكيد في المحيط الإقليمي بل قد تتعداه على الأرجح إلى ما هو أبعد، إذ لطالما كانت سياسة الكيل بمكاييل متعددة سببا في تعميق الأزمات التي تواجه المنطقة منذ عقود، بالنسبة لرسالة الغرب فإن الرسالة التي قد يفهمها كثيرون في المنطقة هي أنّ هناك إرهابا سيئا وإرهابا جيدا في سوريا والعراق.

بين مشروعين...
إيراني منظم وسني مشرذم

د. أحمد موفق زيدان – موقع المسلم ١٤٣٦/٣/٢٦

خلال تغطيتي الإعلامية للجهاد الأفغاني في فترة الثمانينيات التقيت مستشار الرئيس الفرنسي جاك شيراك لمكافحة «الإرهاب» ودار حديث عن الجماعات الجهادية السنية والشيعية، وسألته من باب الفضول لماذا تتعاملون مع الجماعات الشيعية ولا تتعاملون مع السنية، فردّ علي أما الأولى فلديها مرجعية في طهران ودمشق تستطيع أن تضبط تحركاتها، بينما الحركات السنية فليس لديها مرجعية واحدة، وحين تتقدم إحداها تقدماً طفيفاً تبدأ بتهديد البيت الأبيض والوعد بتحرير الأقصى، فكيف يمكن التعامل معها؟

أدركت طهران منذ البداية أهمية الأرض فعززت قوتها بعد الثورة الإيرانية، وحشدت أتباعها ومؤيديها من الطائفة الشيعية في أنحاء العالم، فكانت الحوزات الشيعية بقم وطهران مقرات لتصدير الثورة الإيرانية، وبينما كان الحوثيون وشيعة الخليج وأفغانستان وباكستان

وأفريقيا الوسطى يتدفقون على تلقي تعاليم الثورة الإيرانية، ثم تلقي التدريب في معسكرات حزب الله ومعسكرات سورية، كانت الحركات الإسلامية مطاردة وملاحقة في أوطانها، أما بعض الأنظمة العربية والإسلامية فإما كانت تتقرب إلى طهران أو تقف عاجزة عن مواجهتها بسبب حالة الاحتراب الداخلي التي تعيشها مع شعبها أو معارضتها السياسية، وكانت مثل هذه الحالة تصب في الطاحونة الإيرانية.

وفي ظل الافتقار إلى المظلة السياسية الحكومية القادرة على توظيف الشباب وحماسهم وتحركاتهم خدمة لمشروع سني موحد، وبتفشي حالة اللاثقة بين الأنظمة والشعوب التي انفجرت لاحقاً على شكل تسونامي الربيع العربي، ظهر حجم البون الشاسع ليس بين الأنظمة والشعوب فحسب، وإنما بين الحركات الإسلامية المعتدلة التي تسيّدت المشهد الإسلامي على مدى عقود وبين جيل شبابي لا يثق بهذه الحركات بل يراها المسؤولة عما وصلت إليه الأوطان، وأنها الوجه الآخر للأنظمة المستبدة، كونها دعمتها بشكل أو بآخر، أو صمتت عليها، أو لم تقاومها ..

المرجعيات السياسية والثقافية والإسلامية في العالم العربي للأسف إن لم تكن جزءًا من الأنظمة فقد عجزت على مدى عقود في أن تكون بديلاً عنها، وهو ما أفقد الشباب الثقة بهذه المرجعيات، ولذا سعى جيل الشباب من الحركات الجهادية المتمردة إلى تقديم مرجعياته الخاصة به، فكانت مرجعيات حديثة الأسنان ومجهولة مجتمعياً لكنها مقبولة للطبقة المتمرد ليس لعلميتها وتبحرها بالعلم، وإنما لأنها تخدم أجندته المتمردة على النظام بكافة أشكاله وتفرعاته، وهو ما زاد الشُّقة بين معسكرين دفع المعسكر السني ثمنه، إذ إنه غدا «ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ»، فهو خلاف بين الحكومات والمعارضة، وداخل المعارضة ذاتها إسلامية وغير إسلامية، وبين المعارضة الإسلامية السياسية المعتدلة وبين حركات جهادية متمردة رأت في المشروع التصالحي والديمقراطي فشلاً اتضح برفض العالم نتيجته في الجزائر وفلسطين ومصر وغيرها، بالمقابل كان المشروع الشيعي تجسده مرجعية شرعية وسياسية واحدة، وكان يتقدم مجتمعياً عبر تقديم خدماته لكسب أتباعه، في حين كانت معظم الدول السنية في واد وشعوبها في واد آخر، وكانت الحركات الإسلامية المعتدلة في غالبها تصب في صالح المشروع الإيراني، حتى وجدت نفسها فجأة على مفترق طرق، فإما أن تكون مع أمتها السنية أو مع مصالحها الإيرانية، ودخل الجميع في احتراب عسكري أو سياسي أو شرعي لا فرق وهو ما عزز المشروع الإيراني أكثر فأكثر..

ثمة مثال مهم ينبغي ذكره في التجربة الأفغانية وهو أنه حين تقاطعت مصالح الدول العربية مع الحركات الإسلامية في طرد السوفييت من أفغانستان أثمرت وحدة المشروع بشكل لافت في طرد الشيوعية من أفغانستان، فتقاطر الأنصار العرب وغير العرب لنصرة الشعب الأفغاني وقدم الشيخ الشهيد عبد الله عزام مثالاً رائعاً في تقنين مشاركة الشباب بأن يكونوا ضمن الأحزاب الأفغانية وألا يخالفوهم حتى في قضية رفع الأيدي بالصلاة كون أتباع المذهب الحنفي لا يرفعون أيديهم في الصلاة، وهو ما جعل الشعب الأفغاني يستذكر تلك الأيام الجميلة حتى الآن في مشاركة واستشهاد آلاف الشباب العربي نصرة لهم، لكن بالمقابل حين افترقت المصالح تشتت المشروع وتفرق القوم.

بالعودة إلى ما ذكرته في البداية نقلاً عن المستشار الفرنسي فإن افتقار المشروع السني إلى مظلة حكومية سياسية، قادرة على حمايته من آلة القتل والتدمير والخراب الهمجية في العراق والشام واليمن على مدى سنوات، دفعه إلى التلطي

والاحتماء بجماعات إسلامية متمردة قد توفر له بعض أشكال الردع، وزاد الطين بلة عجز الدول السنية حتى على توفير الحماية لملايين المهاجرين السوريين وغيرهم من عاديات البرد والثلج، وهو ما زاد حالة الإحباط لدى الشعوب في عجز الدول عن مواجهة المشروع الإيراني الذي يستهدفهم في دول عدة..

أخيراً مقاربة قد تكون قاسية ولكن قد تنطبق على ما يجري في الشام والعراق، فإن نظام نجيب الله الشيوعي الأفغاني لم يسقط إلا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي بعامين..فهل سيسقط النظامان المواليان لإيران بعد انهيار الأخيرة خاصة مع انهيارات أسعار النفط الذي ضرب اقتصاد البلدين في مركز عصبه..

بين كابل ودمشق... آخر أيام الطغاة

د. أحمد موفق زيدان – العرب القطرية ٢٠١٥/١/١٢

ما بين سقوط طاغية كابل الطبيب نجيب الله في أبريل ١٩٩٢ والحدث الشامي بتسلط الطاغية طبيب العيون بشار أسد ٢٢ عاماً، فالواضح أن الطغيان والشهادة الطبية هو ما يجمعهما، فأفغانستان والشام مريضتان لكن بسبب تسلط طبيبين لم يحملا من المهنة إلا شهادتها، وخبرة التشريح التي مارسوها يومياً على ضحاياهم الأحياء، لكن البلدين اجتماعياً سليمتان والدليل إصرارهما المذهل الذي أدهش العالم على انتزاع حريتهما من قيد طبيبين كبلهما، كان يُقال عن سوريا التي حكمها عدد من الأطباء في الخمسينات والستينات هل هي مريضة حتى يحكمها رؤوساء أطباء، لكنها اليوم بسبب فشل وسادية المريض نفسه.

أتذكر وأنا الذي غطيت تلك المرحلة الهامة والحرجة من تاريخ أفغانستان وربما من تاريخ العالم كله السباق المحموم بين الخيار العسكري والطروحات السلمية التي قادها يومها الوسيط الدولي بينون سيفان، فقد كانت تتهاوى حصون وأوكار الشيوعية العالمية بواجهتها الأفغانية، أما سياسياً فكان السماسرة الدوليون يواصلون لعبتهم المفضلة في منح الطاغية مزيداً من الوقت للدمار والخراب، وهو ما يجري اليوم زحمة في المبادرات التي لا تُلزم الطاغية ولا داعميه.

تتعش ذاكرتي اليوم وأنا أرى إصرار الحلول السلمية أو الاستسلامية لسرقة ثورة الشام العظيمة تماماً كما حاول كل سماسرة الوساطات الدولية قبل ٢٢ عاماً سرقة منجزات الشعب الأفغاني المنتفض ضد نظام استبدادي شمولي كلفه ملايين الشهداء والجرحى والمعوقين والمشردين، ولقائل يقول وماذا كانت نتيجة ذلك الجهاد، والرد هو أن الجرح عندما يتأخر علاجه لا بد أن يُصيبه القيح ويضر بالجسم بعضه أو كله، وحينها على الأعضاء الأخرى أن تدفع الضريبة.

اليوم نرى في الشام تهاوي معاقل كبرى للنظام في وادي الضيف والحامدية، وما يجري من اقتحام لخزان النظام البشري من المقاتلين الأجانب الموالين له ومن ميليشياته الطائفية بقريتي نبل والزهراء بالريف الحلبي، كله قد يعكس استماتة الوسيط الدولي ستيفان ديميستورا فرض خطته بتجميد الوضع بحلب ربما خطفاً لخطة تركية دعمتها فرنسا في فرض حظر جوي على المدينة، فكان الرد الحلبي كرد المجاهدين الأفغان قبل ٢٢ عاماً مهاجمة معاقل النظام وكسر الحصار عن حلب التي حلم النظام بإكمال حصارها، فتحررت منطقة الملاسات والبريج وتوج الأمر بمحاولات اقتحام قريتي نبل والزهراء، سبقه توحد عدد من الألوية والكتائب الحلبية تحت راية الجبهة الشامية.

واقع النظام السوري اليوم شبيه بنظام نجيب الله قبل السقوط، فأسياد الأخير في موسكو كانوا قد خرجوا من البلاد يجرون أذيال الهزيمة والخيبة، بعد أن أيقنوا أن لا مستقبل له فبدؤوا

بترتيب أوراقهم، ولكن ما يزيد عليه النظام السوري، هو الانهيار الاقتصادي الذي يعانيه أسياده في طهران وموسكو مشفوعاً بالأزمات والجبهات التي فتحها أسياده على نفسيهما، كما جرى مع روسيا في أوكرانيا وحربها الباردة مع الغرب، وجبهات إيرانية في العراق واليمن أثقلت خزينة الدولة الإيرانية، ما دفع رئيس وزراء النظام وائل الحلقي أن يعود خائباً من زيارته إليها بعد أن كان يأمل أن يعود بقسط كبير من موازنة نظام القتل.

العنصر البشري القتالي في تراجع كبير لدى نظام أسد لاسيَّما بعد فقدانه أكثر من نصف عدد قواته خلال السنوات الأربع الماضية، مع تهرّب العلويين من الالتحاق بالجيش، ألجأ النظام لتجنيد العلويات ضمن دورات عسكرية سريعة لتعويض خسائره البشرية في الجبهات، ولكن مع هذا فإن الصمود الأسطوري الذي أبداه الثوار في جوبر بدمشق، والغوطة ودرعا، وعودة الثوار إلى القلمون ثم فك الحصار عن حلب، أشعر النظام ومؤيديه داخلياً وخارجياً باستحالة بقائه، ولكن الثمن المطلوب للثورة ولمئات الآلاف من الشهداء والجرحى وملايين المشردين ودمار أكثر من ٧٠٪ من البلد لن يكون سهلاً عليهم تقديمه، تماماً كما أنه ليس سهلاً على السوريين قبوله إلا بسقوط بنية العصابة التي قادت البلد إلى هذه النهاية.

على هذه الخلفية تنادت روسيا إلى ترتيب مؤتمر تشاوري من أجل بحث الأزمة السورية، ولكن لم تستجب لها المعارضة، فالشركاء في طهران وموسكو على ما يبدو متشاكسان إن كان بما يتعلق بالشأن السوري ومستقبله، أو بما يتعلق بشكوك روسية بالحوار الإيراني مع الغرب وتأثيره على مصالحها في المنطقة والعالم، وهو ما عززه تحالف إيراني صامت مع الغرب في مقاتلة داعش، رفضته موسكو كونه يمس بالسيادة السورية كما تقول، لكن الباطن أنها تخشى من أن يتكرر عليها.

أخيراً المقاربة الأفغانية مهمة جداً لفهم المقاربة السورية إن كان من حيث حجم التدخلات الخارجية وتحديداً الروسية والإيرانية، أو من حيث الميليشيات الأجنبية المقاتلة التي تُكرر ما جرى في أفغانستان، مع كثرة الكتائب والألوية المقاتلة، بالإضافة إلى وساطة الأمم المتحدة في المنطقتين كلها عوامل تدفع إلى ضرورة التعمق بفهم الأولى لفهم أفضل للثانية.

باكستان وإيران:
مصالح متشابكة وعلاقات متعثرة

د. فاطمة الصمادي – الجزيرة نت ٢٠١٥/١/١٢

تُعَدُّ إيران وباكستان لاعبَيْن سياسيَيْن مهمَّين في آسيا، وللدولتين حدود مشتركة؛ فضلًا عن تأثيرهما وتأثُّرهما الكبيرين بتطوُّرات الساحة الإقليمية والدولية، وتبدو العلاقة بين الدولتين مرتكزة على مصالح كثيرة، ويحاول الطرفان الحفاظ عليها على الرغم من العقبات والمشاكل التي تعترض العلاقة. تتجاوز ماهية العلاقة وجوهرها مقاصد ومنافع كل طرف، وتأتي متأثِّرة بعدد من المسائل والمتغيِّرات الأمنية والحدودية، وهنا تبرز مجموعة من القضايا التي تؤثِّر بصورة أو بأخرى في مسار العلاقة سلبًا وإيجابًا، ولعلَّ أهم هذه القضايا: أفغانستان: الانسحاب الأميركي ومستقبل الصراع، العلاقة مع الهند، العلاقة مع الولايات المتحدة الأميركية، العلاقة مع المملكة العربية السعودية، الجماعات السنية والشيعية المتطرفة، الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول وما أعقبه من تطوُّرات على صعيد الأمن الاستراتيجي والجيوستراتيجي للمنطقة؛ تمثَّلت فيما سُمِّيَ بـ«الحرب على الإرهاب».

تسعى هذه الورقة إلى بحث العلاقة بين باكستان وإيران؛ وذلك على ضوء المتغيِّرات التي

سبقت الإشارة إليها، مع النظر إلى الأهمية الجيوسياسية والجيوستراتيجية لكلا البلدين؛ وذلك مع بحث السيناريوهات الممكنة ومستقبل العلاقة على ضوء التطوُّرات الأخيرة وفي مقدمتها التقارب الإيراني- الأميركي.

تاريخ العلاقة: إشكاليات قائمة:

كانت إيران في مقدمة الدول التي رحَّبت بقيام باكستان، وكانت أول دولة تعترف بها رسميًّا عقب استقلالها عن الهند عام ١٩٤٧، وبدأت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين عام ١٩٤٨، وفي عام ١٩٥٠ كان محمد رضا شاه البهلوي أول رئيس دولة أجنبية يزور باكستان الناشئة؛ حيث وُقِّعَت بعد الزيارة معاهدة للأخوة والصداقة؛ وعمَّق من علاقات البلدين ما كانت تمرُّ به علاقات باكستان مع كلٍّ من الهند وأفغانستان، ونظرت باكستان إلى إيران كأنها وسيط لتعميق علاقاتها مع العالم الإسلامي، وشهدت علاقات البلدين تقدُّمًا كبيرًا لدرجة وصفها بـ«العلاقات المثالية»؛ وذلك في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، ويعود ذلك إلى التلاقي الكبير في المواقف والسياسات الخارجية لكلا البلدين فيما يتعلّق بالقضايا الإقليمية والدولية؛ وانخرط كلٌّ من إيران وباكستان في حلف بغداد، الموالي للغرب، الذي سُمِّيَ بحلف (سانتو) بعد خروج العراق منه، وهو الحلف الذي كان يسعى لمواجهة الشيوعية في المنطقة، وتعاظم الدعم الإيراني لباكستان في الحرب بين الهند وباكستان في عام ١٩٦٥؛ حيث كانت إيران تسمح للطائرات الباكستانية بالهبوط في إيران والتزوُّد بالوقود، وقامت إيران الشاه بدور مهمٍّ في بناء كتلة إسلامية قوية وموالية للغرب تتمثَّل في باكستان وتركيا وإيران. ومَنَحَ كلا البلدين الآخر وضع الدولة الأكثر رعاية للأغراض التجارية؛ وقدَّم الشاه النفط والغاز الإيراني إلى باكستان بشروط سخية، وتعاون الجيشان الإيراني والباكستاني لقمع حركة التمرُّد في بلوشستان.

مع أوائل السبعينيات ومع انفصال باكستان الشرقية التي حملت اسم بنغلاديش، أصدر الشاه بيانًا أن إيران لن تسكت إزاء استمرار هذه الحالة في باكستان، وهدَّد بأن إيران ستستولي على إقليم بلوشستان إذا استمرَّ الوضع كذلك.

وبمجيء ذي الفقار علي بوتو إلى الحكم في باكستان، حدث تحوُّل كبير في السياسة الخارجية الباكستانية؛ حيث بدأت باكستان تتوجَّه نحو العالم، وفي عام ١٩٧٤ عُقدت القمَّة الإسلامية في لاهور عام ١٩٧٤؛ حيث غاب الشاه عن اجتماعاتها احتجاجًا على استضافة القذافي.

شهد عام ١٩٧٩ حدثين مهمَّين أثَّرا في مسار العلاقة؛ ففي ذلك العام احتلَّ الاتحاد السوفيتي أفغانستان، وانتصرت الثورة الإسلامية وأسقطت الشاه في إيران. كان يمكن لهذه التطوُّرات أن تُؤَدِّيَ إلى تعميق العلاقات بين البلدين وهو ما لم يحدث؛ وذلك على الرغم من تقارب موقف باكستان وإيران من أفغانستان في البداية. وعلى الرغم من الإعجاب الذي حمله الجنرال محمد ضياء الحق للثورة الإسلامية، حدث التباين في المواقف عندما بدأ التعاون بين باكستان والولايات المتحدة الأميركية ودول عربية لمواجهة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان.

أمَّا على صعيد الداخل الباكستاني؛ فقد كان انتصار ثورة الخميني في إيران سببًا في تسيُّس ومأسسة الشيعة في باكستان، وبرز هذا التأثير عندما فرضت حكومة ضياء الحقِّ تأدية الزكاة على الباكستانيين؛ حيث رفض الشيعة هذا الأمر؛ مما برهن على مدى نفوذ إيران على المواطنين الشيعة في باكستان، ودخلت باكستان في موجة من التشاحن الطائفي؛ حيث شهدت الساحة نشوء جماعات شيعية وسُنِّيَّة متطرِّفة تميل إلى العنف، وبدأ هذا التشاحن يُلقي بظلال سلبية على العلاقات بين البلدين.

في الحرب العراقية- الإيرانية حاولت باكستان أن توازن بين علاقاتها الجيدة مع إيران وتحالفها مع الولايات المتحدة الأميركية، فلم تُدِنْ أو تدعم أيَّ

طـرف مــن أطـراف النــزاع؛ لكــن العقوبــات الــتي فرضـهـا الـغـرب والولايـات المتحـدة علـى إيـران فـضلاً عــن تحـــالف باكــــستان مـــع الولايـــات المتحــــدة الأميركيـة لم يبقيـا بـلا تـأثير سـلبي علـى العلاقـة؛ الــتي كانــت تُوصــف بالمثالية، وبــدأت إيــران تــتهم باكستان بأنها تتحدَّث بلسان أميركي.

شـهدت العلاقـات بـين البلـدين تـوتُّرًا غـير مـسبوق مـع مجـيء طالبــان إلى الحكــم في أفغانــستان في التـسعينات مـن القـرن العـشرين، وهـي الحركـة الـتي أعلنـت عـداءها للـشيعة وإيــران، ورأت إيــران أنهــا حكومـة معادية، خاصـة أنهـا تـدعم تحـالف الـشمال، وتـــرتبط بعلاقـــات قويـــة مـــع الطاجيــك والأوزبــك والــشيعة مـــن الهـــزارة، وكمـــا أن العلاقـــات بـــين باكـستان والولايـات المتحـدة الأميركيـة أثَّـرت سـلبيًّا علـــى العلاقـــات الباكـــستانية- الإيرانيـــة، فـــإن علاقـات إيـران والهنـد لم تقـف بعيـدة عـن معوِّقـات العلاقـة؛ فقـد طـوَّرت إيـران علاقـات اسـتراتيجية مـع الهنـد متجاهلـة الحـساسية الباكـستانية، ومتجـاوزة العلاقـات العميقـة بـين الهنـد وإسـرائيل. وفـضلاً عـن العلاقـــات الــسياسية قامـــت الهنـــد بالمــشاركة في تحـديث مينـاء جابهـار وبنـدر عبـاس، ومـدَّت بـالتوافق مع إيران طريقًا بريًّا إلى أفغانستان.

بعـد سـقوط طالبـان عـادت العلاقـات لتـشهد بعـض التحـسُّن؛ لكنهـا لم تـصل إلى المستوى المـأمول منهـا إلى اليوم؛ على الرغم من توافر الرغبة في ذلك.

مصالح متشابكة:

تتــشابك المــصالح الــسياسية والاقتــصادية بــين البلـدين، بدرجـة شـجعت البلـدين علـى تجـاوز التـوتر الحــدودي[1] بتوقيــع اتفــاق في أكتــوبر/تــشرين الأول ٢٠١٤، ويـرى محللـون باكـستانيون أن هـذا التـوتُّر يجــب ألا يـــؤثِّر علـــى العلاقـــة، ويؤكِّـــدون أن إمكانيـات حلِّـه متـوفرة، فـ«العلاقـات مـع إيـران إيجابيــة في الغالــب»، وقـد أدَّى المحـيط الجغـرافي والجـوار دورًا كـبيرًا في نـسج علاقـات قويـة بـين البلـدين وإيجـاد مجموعـة مـن المنـافع المشتركة؛ الـتي تـأتي ممتزجـة بمـشتركات ثقافيـة يحـرص عليهـا الطرفان.

الاقتصاد: الواقع والمتوقع:

وعلـى الـرغم مـن الحـديث عـن العلاقـات الـسياسية الطيبـة فـإن حجـم التبـادل التجـاري بـين إيـران وباكـستان يقـلُّ عـن المليـار دولار، وتقـول بعـض الأرقـام: إنـه يـصل إلى ٥٠٠ مليـون دولار فقـط، ويميـل الميـزان التجـاري فيـه إلى صـالح إيـران بـصورة كـبيرة. وتبـدو هـذه الأرقـام مفاجئـة؛ خاصـة مـع وجـود الكـثير مـن الاتفاقيـات التجاريـة، وخـلال الأشـهر الماضـية جـرى التوقيـع علـى خمـس مـذكرات تفـاهم بـين الهيئـة الاقتـصادية العليـا الإيرانيـة ونظيرتهـا الباكـستانية، وجـرى تقـديم مقـترح لرفـع حجـم التجـارة بـين إيـران وباكـستان بنـسبة ٢٠٪ سـنويًّا، ووضـع هـذا الهـدف ضـمن الخطـة الاسـتراتيجية الخمـسية لتطـوير التجـارة بـين إيـران وباكـستان، وهنـاك عـدد كـبير مـن اللجــان الــتي تُــشرف علــى العلاقــات الاقتــصادية والتجاريـة بـين البلـدين؛ ولكـن يُؤخـذ عليهـا أن الكثير منها غير فاعل.

خط أنابيب الغاز:

رحَّبـت باكـستان بمـشروع أنبـوب الغـاز، ووجـدت أنـه مـشروع يخـدم حاجتهـا مـن الطاقـة؛ وقـد وضـع حجـر الأسـاس لأنبـوب نقـل الغـاز مـن حقـل «بـارس» في

---

(١) وُقِّع الاتفاق في العاصمة الإيرانية طهران بعد حالة من التوتر التي سادت الحدود الإيرانية- الباكستانية على مدى أيام، وأدَّت إلى مقتل أحد عناصر القوات شبه العسكرية الباكستانية، وإصابة أربعة آخرين، كما تعرَّضت مناطق باكستانية واسعة لهجمات صاروخية من قبل القوات الحدودية الإيرانية غير مرة، وفي حين تحدَّثت المصادر الأمنية عن تعرُّض جنود القوات شبه العسكرية لهجوم مسلَّح من قبل القوات الحدودية الإيرانية، وهجمات صاروخية = متكرِّرة على الأراضي الباكستانية، تحدَّثت القبائل المحلية عن دخول عدد كبير من عناصر الحرس الحدودي الإيراني إلى باكستان، والقيام بتمشيط بعض القرى الحدودية الباكستانية، انظر: صبغة الله صابر، اتفاق باكستاني- إيراني لإنهاء التوتُّرات الحدودية، صحيفة العربي الجديد، ٢٢ من أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٤:

See more at: http://www.alaraby.co.uk/politics/ec2f0364-1dc6-4532-8cc4-b4b9432458a3#sthash.Zom3lY5b.dpuf

جنوب غرب إيران إلى منطقة «نواب شاه» بالقرب من كراتشي على الساحل الجنوبي الشرقي لباكستان مارًّا بأراضي ولايتي السند وبلوشستان الباكستانيتين؛ وسُمِّيَ «مشروع السلام»، وذلك بطول يبلغ ٢٠٠٠ كيلو متر، وتقدَّر كلفته الإجمالية بـ٧,٥ مليارات دولار، وقد تمَّ إنجاز مدِّ الأنبوب في الجانب الإيراني بطول ١٢٢٠ كيلو مترًا؛ بينما يبلغ طول أنبوب الغاز في الأراضي الباكستانية ٧٨٠ كيلو مترًا.

وكان من المقرَّر الانتهاء من المشروع - الذي كان يُخطَّط له الوصول إلى الهند- خلال عامين، وبموجب الاتفاق - الذي تمَّ توقيعه بين البلدين في يونيو/حزيران ٢٠١٠- توفِّر إيران نحو ٢١,٥ مليون متر مكعب من الغاز يوميًّا لباكستان لمدَّة ٢٥ عامًا بداية من ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٤، التي ستُمَكِّن باكستان من توليد نحو ٣٠٠٠- ٤٠٠٠ ميجاوات من الكهرباء؛ لكن هذا المشروع يُواجه عقبات كبيرة، لعلَّ في مقدمتها المعارضة الأميركية، فضلاً عن حساسية الحالة الأمنية في إقليم بلوشستان، وتراجع الهند عن المشاركة فيه.

عادت طهران تلحُّ على إسلام آباد لاتخاذ خطوات فاعلة لتنفيذ المشروع، وتلتقي المواقف الباكستانية مع الرأي الإيراني في أهمية المشروع وضرورة تنفيذه؛ ولكن تنفيذه يبدو بحاجة إلى قرار سياسي من صانع القرار الباكستاني؛ خاصة أن الولايات المتحدة الأميركية لم تُقَدِّم ما تحدَّثت عنه من حوافز لتشجيع باكستان على التخلِّي عن هذا المشروع. ويرى محللون أن هذه العقدة ستُحَلُّ إذا ما تحسَّنت العلاقات الإيرانية- الأميركية، وإذا ما تمَّ التوصُّل إلى اتفاق بشأن ملف إيران النووي يضمن خلخلة العقوبات المفروضة على إيران؛ التي شكَّلت على مدى العقود الماضية عقبة كبيرة أمام العلاقات الاقتصادية بين البلدين.

ويبدو هذا القرار ضروريًّا لتتخلَّى طهران عن تغريم باكستان مبلغًا يصل إلى ٢٠٠ مليون دولار شهريًّا بسبب التأخير في إنجاز المشروع خلال المهلة القانونية؛ التي تنتهي في ٣١ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٤، واتفق الطرفان الإيراني والباكستاني على تغيير مهلة إكمال المشروع لغاية يناير/كانون الثاني عام ٢٠١٥، وضمنت إيران منح حصتها الاستثمارية لإكمال المشروع، وأكملت مدَّ معظم أنبوب الغاز بطول ٩٠٠ كيلو متر إلى الحدود مع باكستان؛ إلا أن إسلام آباد لم تنجز المطلوب لإكمال المشروع.

يُجمع المحللون والمختصون بالعلاقة بين باكستان وإيران على وجود مزايا عديدة تصبُّ في صالح تعزيز العلاقة؛ وأهمها:

لا توجد مشكلة حدودية بين البلدين، وعلى الرغم من التوتُّر الذي حدث على الحدود مؤخَّرًا فإن الطرفين يُبديان حرصًا عاليًا على تجنُّب أيِّ تصعيد حدودي، وإن كان هذا الحرص يصطدم من فترة لأخرى بالوضع الأمني المتردِّي على الحدود الباكستانية- الإيرانية، وما يرافق ذلك من تهريب المخدرات والهجرة غير الشرعية.

تمتلك العلاقات التجارية والاقتصادية أرضية مهمَّة للازدهار والنجاح، وفي مقدمة ذلك ربط البلدين بسكة حديد، وحالت طبيعة الاقتصاد الإيراني وتدهوره بفعل العقوبات الدولية دون إقامة علاقات اقتصادية قوية.

تُعَدُّ باكستان سوقًا مهمَّة لاستهلاك غاز إيران؛ التي تمتلك ثاني أكبر مخزون من الغاز في العالم، وبالنسبة إلى المشاريع الإيرانية فإن باكستان هي الممر البري الوحيد لتصدير الغاز الإيراني إلى الهند.

عقبات في وجه العلاقة:

لا يمكن التقليل من قوة العقبات التي تُواجه العلاقة بين البلدين، وتتعلَّق هذه العقبات في معظمها بالعلاقات الدولية وتحالفات كلِّ طرف؛ ويمكن إجمال هذه العقبات بالتالي:

العلاقة مع الولايات المتحدة الأميركية: على مدى العقود الثلاثة الماضية كانت العلاقة مع واشنطن نقطة خلاف بين الجانبين، وصبغ سياسة كل طرف مواقف متباينة تجاه الولايات المتحدة،

وبينما سعت إسلام آباد إلى خلق حالة من التوازن في علاقتها مع الحليف الأميركي والجار الإيراني؛ رأت طهران في التحالف ما يعوق تطوير العلاقة، وتمثَّل هذا بصورة كبيرة في معارضة واشنطن لعدد من المشاريع الاقتصادية بين إيران وباكستان، وفي إحكام حلقة العقوبات على إيران، وتتصاعد في باكستان اليوم رغبة كبيرة في إعادة تعريف العلاقة مع واشنطن، خاصة مع تشكُّل قناعة في الأوساط العسكرية والسياسية الباكستانية عبَّر عنها وزير الدفاع الباكستاني بقوله: «الولايات المتحدة الأميركية ليست حليفًا يمكن الوثوق به؛ فقد كانت حليفًا نسبيًّا لنا في الستينات والسبعينات، وكانت سياساتها في الشرق الأوسط وجنوب آسيا كارثية، وما زلنا ندفع ثمنها». ومع ذلك تُرَحِّب باكستان بالتقارب الإيراني- الأميركي، وترى فيه منفعة كبيرة لباكستان؛ فتخفيف العقوبات المفروضة على طهران سيعود بالنفع على مجمل العلاقات الاقتصادية بين البلدين، وسيُطلق يد باكستان في تنفيذ عدد من المشاريع المشتركة التي تلبي حاجاتها المتزايدة للطاقة.

العلاقة مع الهند: كما مثَّلت العلاقة مع واشنطن نقطة حساسة بالنسبة إلى إيران، فإن علاقة إيران مع الهند، وتطوُّر هذه العلاقة في السنوات الأخيرة، يُثير قلقًا باكستانيًّا؛ خاصة أن الهند استثمرت العلاقة مع إيران لتحصيل موطئ قدم في أفغانستان؛ وذلك عبر مشاريع اقتصادية كانت بوابة الدخول إليها إيران، ويُعَزِّز من حالة القلق الباكستاني أن دعواتها الأخيرة للحوار لم تلقَ أذنًا هندية مصغية. وتسعى الهند لعلاقات قوية مع إيران؛ خاصة على الصعيد الاقتصادي؛ لكنها تُحجم عن السماح لباكستان أن تكون شريكة في هذا التعاون، وقد بدأت الهند في تسريع وتيرة العمل في ميناء (چاه بهار) تشابهار؛ الذي سيكون مدخلاً لمنطقة آسيا الوسطى وأفغانستان الغنية بالموارد، ويقع الميناء في جنوب شرق إيران، ويمثِّل نقطة حيوية لسعي الهند لتخطِّي باكستان، وفتح منفذ أمام دولة أفغانستان؛ خاصة أن الهند تطور علاقات أمنية ومصالح اقتصادية وثيقة معها؛ ويمثِّل الميناء الذي تشارك الهند في تمويله كذلك بوابة أخرى لإيران نفسها للتجارة مع الهند.

ولن يصبَّ بناء هذا الميناء - الذي تراه الهند ضرورة استراتيجية خاصة أنه مدخلها لآسيا الوسطى وأفغانستان- في مصلحة باكستان؛ حيث لا ترغب في تنامي نفوذ الهند في أفغانستان، ولم تسمح بإرسال بضائع هندية عبر أراضيها لأفغانستان، وبدأت منذ فترة وجيزة فقط في السماح بعبور كمٍّ محدود فقط من الصادرات الأفغانية إلى الهند.

قضية أفغانستان: لم يكن لباكستان وإيران وجهات نظر متقاربة بشأن أفغانستان، وجاء هذا التباين بفعل تحالفات كل طرف مع الطرف المخالف في أفغانستان؛ ففي حين دعمت باكستان حركة طالبان، اتجهت إيران إلى معاداة طالبان ودعم تحالف الشمال، وبعد سقوط طالبان بقيت النخبة الحاكمة في كابل توجِّه الاتهامات لباكستان بأنها مسؤولة عن غياب الاستقرار في أفغانستان، وأنها تدعم أطرافًا يسعون لإجهاض العملية السياسية. وبعد توقيع الاتفاقية الأمنية بين أفغانستان والولايات المتحدة الأميركية - التي تضمن بقاء قواعد عسكرية أميركية في أفغانستان- تشكَّلت وجهة نظر متقاربة بين طهران وإسلام آباد ترفض هذه القواعد، وترى فيها تهديدًا؛ ومع ذلك فإن أفغانستان بالنسبة إلى الدولتين هي ساحة للنفوذ والتنافس.

الصراع المذهبي: على غرار ما حدث في السودان يوجِّه قطاع عريض من الباكستانيين نقدًا كبيرًا للدور الذي تقوم به المراكز الثقافية الإيرانية في باكستان، ويرون أن هذه المراكز تحوَّلت نشاطاتها بعد الثورة الإسلامية من تعليم اللغة

الفارسية إلى نشاطات دينية/طائفية (شيعية)، وتتفاوت الآراء بشأن هذه القضية؛ فهناك فئة ترى أن المشكلة انعكاس لصدام مذهبي إيراني- سعودي، ففي حين تدعم إيران المجموعات الشيعية المتطرِّفة، تُقَدِّم السعودية - أيضًا- الدعم للمجموعات السُّنِّيَّة المتطرِّفة في باكستان، وعلى باكستان أن تسعى لإخراج نفسها من هذه اللعبة الطائفية، بوضع حدٍّ لتدخُّل الجانبين؛ خاصة أن باكستان لديها أكبر تجمُّع للشيعة في العالم بعد إيران، كما أن ٨٠٪ من سكانها هم من المسلمين السُّنَّة.

ويرى بعض المحللين أن المشكلة لها أسباب كثيرة داخلية وخارجية؛ منها أن القيادة السياسية في إيران أخذت في السنوات الأخيرة بصياغة خطابها وفق الأجندة الشيعية، وليس وفق الأجندة الإسلامية العامة، وهو ما خلق مشكلة، ولا يُرجع محللون آخرون هذا الخطاب إلى السنوات الأخيرة؛ بل يرون أنه جاء مرافقًا للثورة الإسلامية التي أثَّرت في كل المنطقة؛ لكن الكاريزما الإسلامية التي تمتع بها الخميني، والاحترام الذي حظي به في العالم الإسلامي غيَّبا لفترة من الزمن الخطاب المقصور على الأجندة الشيعية. وأيًّا تكن الآراء فإنها تُجمع على أنه ليس من مصلحة باكستان الانخراط في اللعبة الطائفية، التي «انخرطت فيها إيران والسعودية»، وخلال العقدين الأخيرين شهدت باكستان تصاعدًا في حالات الاختطاف والقتل المنظم لأسباب طائفية، وتغيَّرت خريطة «العنف الطائفي» بين السُّنَّة والشيعة بشكل كبير في باكستان؛ ففي خلال الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي كانت المشكلة خطيرة في كراتشي، إلا أن العدوى انتقلت لتشمل أقاليم «السند» و«البنجاب» و«بلوشستان» و«روالبندي»، وأماكن أخرى.

مواجهة الحالة الطائفية مشروطة بأن يعرف كل طرف كيف يُلجم «الحمقى الذين يسعِّرون نار الطائفية لدى الطرفين، ومن دون ذلك نكون كمن يصبُّ الزيت على النار».

خلاصة:

إن في باكستان أو إيران مَنْ يُشَكِّك في أهمية العلاقات الباكستانية- الإيرانية، وضرورة تعزيزها؛ ومع ذلك فإن الرغبة الثنائية لم تنجح إلى اليوم في الوصول بالعلاقة إلى المستوى المأمول؛ فالعلاقة بين الدولتين - التي لا يجادل أي محلل في الأهمية الاستراتيجية لكل منهما- ستبقى إلى وقت طويل محكومة بالكثير من العقبات، وتبدو العلاقات الاقتصادية والتجارية - التي تتوافر لها بنية تحتية مناسبة- محكومة بتعقيدات الأوضاع السياسية وضحية لها، ولن تتوافر الفرصة لتحقيق الرغبة الباكستانية- الإيرانية على هذا الصعيد دون حلِّ الكثير من الملفات العالقة، وفي مقدمتها المشكلة المتفاقمة في بلوشستان، فضلاً عن وضع حلول للمشكلة الطائفية التي تفاقمت خلال العقد الماضي بصورة مقلقة. وتتشابك هذه العلاقة وتصطدم بعلاقات كلٍّ منهما مع الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية والهند على وجه الخصوص، وإذا ما نجحت جهود التقارب بين واشنطن وطهران؛ فإن ذلك سينعكس إيجابيًّا على العلاقات الباكستانية- الإيرانية، وسيُتيح تنفيذ الكثير من المشاريع الاقتصادية التي أعاقت تنفيذها العقوبات المفروضة على إيران، ويرتبط ذلك - أيضًا- بالعلاقة مع الهند، ومن المؤكد أن باكستان تطالب بنوع من التوازن في التعاون الإيراني- الهندي، ولن يكون من مصلحتها استمرار تنامي العلاقات الاستراتيجية بين الهند وإيران، وفي المقابل فإن إيران لا تنظر بعين الرضا إلى العلاقات القوية بين باكستان والسعودية.

إيران بين التاريخ والجغرافيا

فهمي هويدي – الشروق المصرية ٢٠١٤/١٢/٨

إذا صح أن نفوذ إيران أصبح يمتد من لبنان إلى اليمن، فذلك ربما يعني أنها انحازت إلى الجغرافيا على حساب التاريخ مقولة تمدد النفوذ نقلت على لسان الدكتور على أكبر ولايتى مستشار مرشد الجمهورية الإسلامية للشئون الدولية ووزير الخارجية الأسبق. وعممتها وكالات الأنباء العالمية على الملأ يوم الاثنين الماضى ١٢/١٥. وإذ أضع أكثر من خط تحت كلمتى «إذا صح» فإننى لست متأكدا تماما مما قاله الرجل، ثم اننى لا أخفى عدم ارتياح لتلك الفكرة التى رددتها أصوات بعض المثقفين والبرلمانيين فى طهران خلال الأسابيع الماضية، إلا أنها كانت معبرة عن آراء شخصية لا تحسب بالضرورة على سياسة الدولة. لكن الأمر لابد أن يختلف حين يصدر الكلام ذاته عن مستشار المرشد للشئون الدولية، الذى ظل وزيرا للخارجية طوال ١٦ عاما أتقن خلالها لغة الدبلوماسيين، رغم انه طبيب أطفال بالأساس. إذ فى هذه الحالة لا نستطيع أن نفصله عن سياسة الدولة، الأمر الذى يدعونا لأن نأخذه على محمل الجد بحيث نحاول ان نقلِّبه من أوجهه المختلفة، خصوصا إذا سكتت عليه طهران ولم تحاول أن تصوبه أو تنفيه.

ظاهر كلام الدكتور ولايتى ــ إذا لم يراجع ــ يشير إلى «نفوذ» لإيران فى أربع دول عربية على الأقل هى لبنان والعراق وسوريا واليمن، ستؤجل مناقشة حدود النفوذ وصيغته إلى ما بعد تحديد طبيعة العلاقة بين إيران والدول الأربع. ذلك اننا نفهم أن ثمة علاقة خاصة بين طهران والنظم القائمة فى الدول الثلاث (سوريا والعراق ولبنان)، وأيا كان رأينا فى تلك العلاقة فالشاهد انها حاصلة بين الدولة الإيرانية وتلك الدول، إلا أن إلحاق اليمن بالقائمة يمثل خطأ جسيما، ينم عن عدم معرفة كافية بالوضع هناك، ولئن غفر ذلك لأى مسئول إيرانى آخر فإنه لا يغفر لمستشار مرشد الجمهورية للشئون الخارجية الذى كان وزيرا سابقا للخارجية. ذلك أنه ساوى بين النظام القائم فى كل من دمشق وبغداد وبيروت وبين اللانظام الحاصل فى اليمن. وبين الذين يحكمون فى الدول الثلاث وبين الذين يتحكمون فى مصير اليمن، ليس بسبب قوتهم أو شعبيتهم ولكن بسبب ضعف الدولة وانهيار مؤسساتها. إذ جرى استثمار ذلك الانهيار من جانب فصيل يمثل أقلية ضمن الأقلية، فى القيام بعملية اجتياح للعاصمة وسطو على مؤسساتها أعقبها تمدد فى أنحاء الدولة المنهارة، الأمر الذى أسفر عن اختطاف واجهة النظام الذى لم يفهم البعض فى طهران طبيعته، فهللوا له هناك واعتبروه انتصارا للثورة الإسلامية. وهذا منطوق يحتاج إلى بعض الافصاح والشرح.

ذلك أن سكان اليمن (٢٥ مليون نسمة) يتوزع المسلمون فيه ما بين الشوافع نسبة إلى الإمام الشافعى والزيود نسبة إلى الإمام زيد بن على حفيد الإمام الحسين بن على بن أبى طالب. والزيود يمثلون ثلث المسلمين والتصنيف الشائع عنهم أنهم إحدى فرق الشيعة التى قننت الخروج على الحاكم الظالم. لكن الباحثين لا يضعونهم فى سلة واحدة، وإنما يميزون بين ثلاثة اتجاهات داخل المذهب. أحدها أقرب إلى الشيعة والثانى أقرب إلى المعتزلة والثالث أقرب إلى أهل السنة. وهو ما فصل فيه الدكتور أحمد محمود صبحى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الاسكندرية فى مؤلفه الكبير عن «الزيدية»، وأيده فى ذلك الدكتور عبدالعزيز المقالح رئيس جامعة صنعاء الأسبق فى كتابه عن فكر الزيدية والمعتزلة. الذى عالج التباينات بين الاتجاهات الثلاثة داخل المذهب الزيدى، وقال ان الاتجاه المعتزلى ينكر التَّقية كما ينكر عصمة الأئمة، وهما من أسس التشيع، مضيفا أن الزيدية

معتزلة فى الأصول وأحناف فى الفروع. أما العلامة الشيخ محمد أبو زهرة فقد ذكر فى كتابه عن تاريخ المذاهب الإسلامية أن فقه الزيدية «قريب كل القرب من فقه الأئمة الأربعة» (عند أهل السنة).

خلاصة ما سبق أن الزيود الذين هم أقلية نسبية فى اليمن (ثلث المسلمين) يتوزعون على ثلاث مدارس فكرية أو فصائل، إحداها يميل إلى الشيعة وعلى خلاف مع المدرستين أو الاتجاهين الآخرين (المعتزلى والحنفى السنّى). ليس ذلك فحسب، ولكن الاتجاه المتشيع بين الزيود لا يعد كيانا واحدا، ولكن أتباعه يتوزعون على عدة عائلات كبيرة كل واحدة منها لها أئمتها. والهاشميون الذين ينتسبون إلى آل بيت النبوة وقبيلة بنى هاشم من بين تلك العائلات. والحوثيون الذين تمركزوا فى شمال اليمن فرع عن الهاشميين، أصلهم من بلدة «حوث» فى محافظة عمران، وإمامهم ومرجعهم الفقهى هو الشيخ بدر الدين الحوثى المتوفى سنة ٢٠١٠ عن ٨٤ عاما.

مما سبق يتبين أن الحوثيين الذين اجتاحوا صنعاء فى ٢٩ سبتمبر الماضى مجرد فصيل صغير لا يمثل الهاشميين ولا يمثل الزيود وبالتأكيد لا يمثلون الشعب اليمنى، ولكنهم فرع عن فرع عن فرع، وقد تفوقوا لأنهم أفضل تنظيما وتمويلا، الأمر الذى مكنهم من الهيمنة على المشهد اليمنى بصورة مؤقتة. وتلك خلفية لو كان الدكتور على ولايتى على علم بها لما تسرع وقرر أن إيران أصبحت صاحب نفوذ فى اليمن. ولما راهن على فصيل متواضع بهذه الصورة لا مستقبل له فى حكم اليمن الذى هو أكبر من الحوثيين وأكثر تعقيدا وأثقل وزنا من جماعتهم.

ثم ما حكاية «النفوذ» الإيرانى الذى يتحدث عنه الدكتور ولايتى ممتدا من اليمن إلى لبنان؟ ألا يعد استخدام ذلك المصطلح تأكيدا لما أثير من دعاوى وشكوك بخصوص تطلعات إيران إلى ما وراء حدودها؟ وأيهما أفضل أن تكون إيران الثورة الإسلامية على موقفها من نُصرة المستضعفين ومقاومة الاستكبار العالمى أو ان تتطلع لممارسة النفوذ وزيادته فى محيطها العربى؟ ولأننى أحد الذين تفاعلوا مع الثورة الإسلامية منذ أيامها الأولى، فربما جاز ان أقول إن النفوذ المزعوم قد يكون سحبا من رصيد الثورة وليس إضافة إليه. وقد تمنيت أن تظل إيران الثورة جارا قويا يسعى لنصرة الشعوب، وليس صاحبة نفوذ قوى لدى بعض الحكومات. والتزامها بالرسالة الأولى يدخلها إلى التاريخ، أما المهمة الثانية فهى تخدم جغرافية الثورة وتكاد تخرجها من التاريخ. الأمر الذى يستدعى سؤالا كبيرا هو: هل هزم حلم الثورة أمام طموحات الدولة فى إيران؟

هل الدين هو المسؤول عن الإرهاب أم السياسة؟!

جمال سلطان - المصريون ٢٠١٥/١/١٣

هل صحيح أن الدين هو بوابة الإرهاب ، سواء كان الدين الإسلامي أو أي دين آخر ، وهل صحيح أن التدين هو الخطوة الأولى نحو الانخراط في الأعمال الإرهابية ، مع الأسف الموجة السائدة للإعلام العربي حاليا تتجه إلى الإجابة بالإيجاب على هذا السؤال ، وهناك تيار جارف ونشط ومدعوم رسميا في العواصم العربية يؤكد على هذه الفرضية ، ويدعو إلى إعادة النظر في تربيتنا الدينية وفي مناهج الدين وأيضا تجديد الفكر الديني، فهل هي فرضية صحيحة ، وهل الإجابة بنعم على ذلك السؤال هي الإجابة الصواب فعلا ؟

المجتمعات العربية تحديدا هي مجتمعات متدينة بطبيعتها الغالبة ، والدين حاضر بقوة في سلوكيات الناس ووعيهم ومشاعرهم على مدار التاريخ ، وطوال القرن العشرين كان التدين بين المسلمين مسيطرا ومع ذلك لم يشهد القرن العشرين في أغلبه ، في ثمانين عاما منه على الأقل موجات

إرهابيـة وتنظيمـات إرهابيـة شـاملة كتلـك الـتي نـشهدها الآن في كـل مكـان تقريبـا ، بـل كانـت الأعمـال الإرهابيـة الـتي عرفهـا العـالم في تلك المرحلة مـن فعـل تيـارات فكريـة وايديولوجيـة أخـرى مـن غـير الإسـلام ، حيـث نـشطت جماعـات يـسارية في ألمانيـا تحـت عنـوان «بـادر ماينهوف» لتمـارس مختلـف صـور الإرهـاب مـن قتـل وحـرق واختطـاف رهـائن إلى آخـره الأمـر الـذي روع ألمانيـا لـسنوات طويلـة ، وكـذلك الأمـر في إيطاليـا حيـث نـشطت تنظيمـات إرهابيـة يـسارية تحـت مـسمى «الألويـة الحمـراء» وأفزعـت المجتمـع الإيطـالي سـنوات طويلـة وارتكبـت العديـد مـن الجـرائم بمـا فيهـا اغتيـال واختطـاف رئـيس الـوزراء ، أيـضا كانـت هنـاك نـشاطات إرهابيـة في اليابـان قامـت بهـا منظمـة «الجـيش الأحمـر اليابـاني» وارتكبـت العـشرات مـن أعمـال العنـف والإرهـاب بمختلـف صـورها ، كمـا نـشطت مجموعـات فلـسطينية يـسارية أيـضا خاصـة في الـسبعينات ومارسـت عمليـات إرهابيـة واسـعة النطـاق ومروعـة بمـا في ذلـك اختطـاف طـائرات مدنيـة واختطـاف شخـصيات وفرقـا رياضـية وغـير ذلـك ، كمـا ظهـرت تنظيمـات ناصـرية قوميـة في القـاهرة خططـت ونفـذت العديـد مـن الأعمـال الـتي توصـف بالإرهـاب مثـل اغتيـال ديبلوماسـيين أجانـب ومحـاولات الاختطـاف حتـى تم تـصفيتها باعتقـال محمـود نـور الـدين زعـيم المجموعـة والحكـم عليـه بالـسجن المؤبـد ، وطـوال تلـك المرحلـة مـن النـشاط «الإرهـابي» في أوربـا وآسـيا وفي مـصر والمنطقـة العربيـة لم يكـن هنـاك أي منظمـة «دينيـة» إسـلامية ينـسب إليهـا الإرهـاب أبـدا ، ولم تـتهم أي حركـة إسـلامية بـالتورط في أعمـال إرهابيـة منظمـة ، وذلـك قبـل أن ينحـسر اليـسار العربـي والأوربـي بعـد انكـسار التجربـة الـسوفيتية وهزيمتهـا في أفغانـستان وسـقوط دولتهـا «النمـوذج» وتحول موسكو إلى النموذج الرأسمالي الغربي .

لماذا غاب الدين عن الحضور في تلك الموجات الإرهابيـة والتنظيمـات الإرهابيـة الـتي انتـشرت على مـدار أربعـين عاما تقريبـا ، والـدين هـو الـدين ، والتـدين هـو التـدين ، والمنـاهج هـي المنـاهج ، الأمـر إذن لا يتـصل بالـدين في ذاتـه ولا بالتـدين ، وإنمـا بـالأجواء الـسياسية الـتي تـشعر قطاعـات واسـعة بـالظلم أو التهمـيش أو القهـر أو العبوديـة ، فتلـك الأجـواء تكـون بمثابـة العنـصر الحاسـم في صـناعة «مركـب الإرهـاب» والإغـراء بـه سـبيلا لتحقيـق مطالـب يراهـا أصـحابها مـشروعة أو دفـع مظـالم ، ورغـم قـسوة تلـك الظـروف وضـغطها علـى مـشاعر الملايـين مـن المتـدينين في الوقـت الحاضـر ، إلا أنهـا ـ رغـم ذلـك ـ لا تجـذب إلا نـسبة صـغيرة جـدا وهامـشية مـن التيـار الـديني ، ولكنهـا ـ مـع الأسـف ـ نـسبة تكـون كافيـة لنـشر العنـف والخـوف والإرهـاب علـى نطـاق واسـع ، علـى النحـو الـذي نـراه الآن في تنظيمـات نشطة في العراق وسوريا واليمن ومصر وغيرها .

الإرهـاب ـ إذن ـ لـيس وليـدا للـدين أو التـدين أو منـاهج التعلـيم الـديني أو المـدني ، فقـد كـان وليـدا للماركـسية أيـضا وللفكـر القـومي في غيـاب كامـل للمكـون الـديني في تلـك الموجـات الإرهابيـة ، ولكـن الإرهـاب هـو وليـد سياسـات باطـشة ومتعجرفـة تـصنع أجـواء محتقنـة وظالمـة أو غـير عادلـة أو غـير مقنعـة ومحبطـة لمـشاعر قطاعـات واسـعة مـن البـشر ، فتجتـذب مجموعـات مـن الـشباب تنـدفع في مـسار العنـف والإرهـاب متـصورة أنهـا يمكنهـا أن تنتـزع مـا تـراه حقـا مـن هـذا الطريـق أو تـرد علـى الظلـم بهـذا الطريـق ، ومـن أجـل تـوفير دافـع التـضحية وعنـصر الفـداء لعناصـرها تقـوم تلـك التيـارات ببنـاء منظومـة «روحيـة» ملهمـة ، تـستند فيهـا إلى الحالـة الفكريـة الأكثـر إثـارة وجـذبا في تلـك اللحظـة التاريخيـة ، وقـد تكـون تلـك الحالـة ايديولوجيـة يـسارية أو قوميـة عنصرية أو دينية .

إن مـا لا شـك فيـه ، بـشاهد التـاريخ القريـب ، والواقـع الحـي ، أن الـدين بـرئ مـن قـصة الإرهـاب ، وأن بعـض القيـادات الـسياسية والـنظم الحاكمـة في الـشرق أو الغـرب تحـاول الهـروب مـن مـسؤوليتها عـن

صناعة الواقع الظالم والباطش المؤجج للإرهاب والجاذب للإرهاب بإلقاء التهمة السهلة والرخيصة على الدين ، الحيطة المايلة في ظنهم ، ويدعمهم في ذلك نخب إعلامية وسياسية وثقافية ، تراها فرصة لضرب وتصفية تيار التدين في المجتمع الذي يمثل حائط صد قويا يمنع تمدد نزقهم الأخلاقي أو الفكري أو السياسي.

الإسلام بين "وجدان" أوروبا و"عقلها"

محمود سلطان - المصريون ٢٠١٥/١/١٥

من مفاتيح فهم ما يواجه مسلمي أوروبا من تحدّيات، السؤال عما إذا كان الأولى هو مخاطبة «وجدان» أوروبا أم «عقلها»؟!

فيما يتعلق بـ«الفوبيا» فإن الأخير يظل مرتبطاً بـ«الحالة الوجدانية»؛ إذ إنه اصطلاح يوناني في الأصل، ويعني الخوف المبالغ فيه وغير المبرر، وكان يُستخدم في حقل الأمراض النفسية والعصبية، وقياساً على ذلك فإن أوروبا في منزلة «المريض النفسي»، ويبقى وجدانها والتأثير فيه هو الذي ينبغي أن يكون في بؤرة الاهتمام الإسلامي، متى شئنا «التخفيف» مما تعانيه من فوبيا تجاه الإسلام.

غالبية الأدبيات التي وضعت من أجل تخويفها من الإسلام، اعتمدت على مخاطبة الوجدان لا العقل، وبالرجوع إلى كتابي الصحفية الإيطالية (أريانا فالاتشي)، صاحبة السبق في صناعة «الإسلاموفوبيا» والمعروفين بـ«الفخر والغضب» و«قوة المنطق» فإنه قد بيع منهما في إيطاليا وحدها أكثر من مليوني نسخة، على الرغم من أنهما لا يعتمدان إلاّ على «العبث» بالوجدان الغربي وتخويفه من الإسلام الذي سيحيل أوروبا ـ بحسب رأي (فالاتشي)- إلى «إمارات إسلامية»، وهو ذات المنحى الذي سار عليه تلميذها في الولايات المتحدة الأمريكية الكاتب اليميني المتطرف (دانيال بايبس)، والذي استقى من الأولى منهجها في صناعة (الإسلاموفوبيا) في أمريكا في مرحلة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الدامي.

ولو كان الوضع يُقاس بـ«العقل» ما كان لمثل هذه التيارات المعادية للوجود الإسلامي في أوروبا، أن تنتعش بحال.. لقد ناقش تقرير صادر عن الأمم المتحدة عام ٢٠٠٤ ، «فرية» أن الإسلام لا يمكن أن يتعايش مع الديموقراطية؛ إذ أظهر التقرير أن نصف المسلمين تقريباً في العالم، أي نحو (١,٤) مليار مسلم يعيشون في ظل حكومات ديموقراطية، وذكر دولاً مثل أندونسيا، ماليزيا، بنجلاديش والهند. وعرّج التقرير نحو بعض التفاصيل، وعرض تجربة أندونيسيا والتي تعتبر أكبر دولة إسلامية من حيث التعداد (٢٠٠ مليون مسلم) وكيف تخلصت من «الديكتاتورية العلمانية» لتقيم نظاماً ديموقراطياً أفرزت في بعض مراحلها بلوغ المرأة إلى أعلى منصب سياسي في البلاد: الرئيسة (ميجاواتي سوكارو).. وذكر التقرير أيضاً عدداً من تجارب المسلمين الأفارقة في السنغال ومالي، مشيراً إلى «عدالة» الخبرة السياسية الإسلامية فيهما، خاصة في السنغال، ضارباً أمثلة متعددة، خاصة في التعاطي «المنصف» بين المواطنين المسلمين والنصارى الكاثوليك.

وفي السياق ذاته فإن معهد (جالوب) لأبحاث الرأي العام في أمريكا، أجرى على مدى ست سنوات دراسة شملت أربعين دولة، خلصت إلى أن ٩٣٪ من مسلمي العالم معتدلون وأن ٧٪ منهم فقط متشددون!

الخلاصة إذن.. أنه لو كان الأمر يُؤخذ بالعقل، ما تنامى كل هذا الخوف من الإسلام في أوروبا أو غيرها، على هذا النحو المرضي والمثير للقلاقل والتوتر في أكثر من عاصمة غربية، وذلك وفقاً للدراسات والتقارير الغربية التي تنفي عن «الإسلام» ما يجعله مصدراً للخوف والإزعاج.. ولكن المسألة فقط تتعلق بـ«الوجدان» الذي اختطفه المحافظون المتطرفون في الغرب مما سهل

عليهم ــ من خلالة ــ مهمة «شيطنة الإسلام»، معتمدين على الخبرات التي كشفت عن أن «الخوف» يكفي وحده لهزيمة «العقل» أياً كانت منزلة وعيه ونضجه.. ولعل هذه «الحقيقة» هي التي يحتاج الدعاة والنشطاء الإسلاميون في الغرب إلى إعادة اكتشافها، عوضاً عن إهدار الوقت والجهد في تعليق المحنة على شماعة ما نعتقد بأنها كراهية «غريزية» لا حل لها غير الشكوى وانتظار مفاجآت قد لا تأتي مطلقاً.

مشكلة أوروبا وأمريكا مع الإسلام

محمود سلطان - المصريون ٢٠١٥/١/١٧

كان لافتا أن تصدر نظريتا: «صدام الحضارات» و« نهاية التاريخ» من المحاضن الثقافية بالولايات المتحدة، وليس من أوروبا، رغم أن الأخيرة هي التي تستعر في بعض بلدانها ظاهرة الإساءة للإسلام أو التضييق على تجليات وجوده في نسخته الغربية..هذه المفارقة، في ذاتها، حاملة للتباين بينهما، فيما يتعلق بالوظيفة السياسية والاجتماعية والثقافية للدين.

في أوروبا، لم يعد للمسيحية إلا قيمتها الثقافية فقط، إذ تحولت بمضي الوقت من «دين» إلى «هوية»، فإذا أسيء للمسيح في ذاته لا تغضب أوروبا، وإذا شعرت بأنها مهددة في هويتها تقيم الدنيا ولا تقعدها! وهذه هي أصل مشكلة «أوروبا» مع «الإسلام» الأوروبي.

ولذا فإن الأخيرة لا تبحث عن «الصدام» ولكن عن «التعايش» مع إسلام «خاص» متصالح مع «هويتها» المسيحية، لا يهددها بـ«أسلمة» الشكل، بانتشار الحجاب والمساجد، أو ارتفاع مآذنها على أبراج الكنائس مثلا، ومن ثم سيظل جدل «الأسلمة» و«النصرنة» في أوروبا في حدود البحث عن صيغة لهذا التعايش، بعيدا عن الصدام «الديني» أو«الحضاري» المباشر والعنيف مع الشرق الإسلامي.

الدين في الولايات المتحدة الأمريكية يختلف اختلافا حادا عن وظيفته في أوربا، فإذا كان في الأخيرة وكما أسلفت محض عاصم من الذوبان والاختفاء التدريجي، فإنه في الأولى جزء «خفي» من العقيدة السياسة والأمنية الأمريكية، والتي تتمتع بحضور أساسي ومحوري، في وضع الأجندات والسياسات وإدارة الأزمات الدولية.

لقد كتب الأمريكي الشهير «مارك ستاين» في كتابه «أمريكا وحدها».. نهاية العالم كما نعرفها» عن الوظيفة الدينية للولايات المتحدة الأمريكية، مبينا أنها الوحيدة التي ستحمي المسيحية من الإسلام، بعد أن تختفي أوروبا بالتدرج وتحولها إلى ولايات إسلامية.

لقد بين «برنارد لويس» أكثر بأن حروب الولايات المتحدة في العالم الإسلامي تأتي في سياق «الكراهية» التي أفرزها «التنافس الألفي» بين الديانتين العالميتين «المسيحية والإسلام».

إذن «صدام الحضارات» يأتي في سياق الثقافة الأمريكية التي تميل إلى الصدام ونفي الآخر المخالف دينيا لا التعايش معه، وذلك استجابة للوظيفة الدينية للدولة كما يراها مثقفون أمريكيون يملكون سلطات اعتبارية كبيرة على صانع القرار الرسمي الأمريكي.

في مؤتمر «دافوس» ، وردا على ظهور جماعات تناهض بناء المساجد في أوروبا، قال النائب البرلماني السويسري السابق «أولريخ شلور» رئيس لجنة مبادرة حظر بناء المآذن في سويسرا: «لا علاقة للمئذنة بالإيمان، وحرية الدين لا تُمس (من قبل المبادرة)، فالمئذنة رمز لإرادة تولي السلطة من قبل من يدافعون عن مفاهيم القانون ، تلك (الشريعة) التي تتعارض مع تصورنا نحن».

هذه هي مشكلة أوروبا الحقيقية مع «الإسلام».. إنه «القلق الثقافي» على «هويتها».. وهو

قلق مشروع يمكن تفهمه ويختلف كثيرا عما هو عليه الحال في أمريكا، حيث بات «التطرف الديني» حاضرا داخل النخبة الحاكمة ذاتها، مقابل تنامي «القلق الثقافي» داخل مؤسسات السيادة وصناعة القرار في أوروبا، ولذا فإن الأولى تحكم علاقاتها بالآخر «المخالف» الرغبة في «النفي» و«الإقصاء»، فيما تظل علاقة الثانية بالمخالف الديني والثقافي تحت سقف البحث عن وسيلة لـ«التعايش» معه.

الإسلاميون وحدود الديمقراطية

حسن أبو هنية - التقرير ٢٠١٥/١/١٧

يعمل الغرب عمومًا والولايات المتحدة خصوصًا على دعم وإسناد مجموعة هائلة من المؤسسات والشبكات في العالم العربي تحت عنوان «تمكين الديمقراطية»؛ إلا أن الديمقراطية المسندة غربيًا تناهض روح الديمقراطية، فحدودها تقتصر على بناء شبكات تتماهى مع المصالح الغربية وتناهض أعداءها المفترضين من الإسلاميين، وتوظف في التشغيب على الأنظمة القمعية التسلطية التي تتمتع بالرعاية الغربية، الأمر الذي يكشف عن زيف أطروحة نشر الديمقراطية في العالم العربي إلا إذا جاءت بديمقراطيين بمواصفات ليبرالية خاصة، يعملون كعملاء ووكلاء لتأمين المصالح الغربية وضمان الهيمنة التامة.

هزل الأطروحة الديمقراطية الانتقائية المشوهة تبدو ظاهرة في حالة الإسلاميين؛ إذ لم يهزم الإسلام السياسي منذ بروزه في العالمين العربي والإسلامي قبل أكثر من ثلاثة عقود في أي منازلة انتخابية ديمقراطية، وقد برهن الإسلاميون عقب انطلاق الثورات العربية على أنهم قوة لا مجال للتغلب عليها عبر صناديق الاقتراع الشفافة، إلا أن مفارقات الديمقراطية الانتقائية المشوهة لا تتسامح مع قوة موسومة إمبرياليًا ودكتاتوريًا باللاديمقراطية، ففي كل منازلة ديمقراطية تأتي بالإسلاميين تتعالى الأصوات بالتحذير من سيطرة «الفاشية» الإسلامية، التي تسعى لترسيخ دولة شمولية كما فعل الحزب النازي في ألمانيا عام ١٩٣٣.

يقوم الخطاب الديمقراطي الغربي على تناقض جوهري، فهو يروج لديمقراطية تتماهى مع ديمقراطيته، ويناهض أي ديمقراطية لا تتبع ديمقراطيته باعتبارها تهدد الديمقراطية، فحدود ممارسة الديمقراطية العربية تتلخص بوجوب قبول دخول الإسلاميين في العملية الانتخابية، على أن لا يحققوا فوزًا صريحًا؛ ذلك أن فوز الإسلاميين يعني نهاية الديمقراطية وخروجًا على حدودها، فبحسب سدنة الديمقراطية سينقلب الإسلاميون على الديمقراطية ويستثمرونها كوسيلة للوصول إلى السلطة مرة واحدة وإلى الأبد؛ إلا أن الديكتاتوريات العربية المسندة غربيًا تؤكد لنا نقيض الأطروحة الإمبريالية المتحالفة مع الديكتاتورية، فهي التي تنقلب على الديمقراطية دومًا، بدءًا من الحالة الجزائرية وصولًا إلى الحالة المصرية.

في هذا السياق، يبدو جليًا أن الإمبريالية والديكتاتورية والتي هي غير ديمقراطية بطبيعتها تشكل تحديًا أساسيًا في مسيرة التقدم الديمقراطي، فعلى الرغم من التقدم الملحوظ الذي شهده العالم العربي في مسيرة التحول الديمقراطي في نهاية عقد الثمانينيات من القرن المنصرم؛ إلا أن هذه المسيرة وصلت إلى طريق مسدود، وقد تباينت الاجتهادات التفسيرية حول حالة النكوص والتراجع والركود الذي أصاب عملية التحول الديمقراطي، ولم تفلح هذه الدراسات في التوصل إلى أسباب حاسمة في التفسير والتحليل؛ وذلك بسبب التركيز على المقاربات الثقافية أو الدينية في تفهم الظاهرة، ووصل الأمر لدى بعض الباحثين درجة من الوقاحة الإنكارية تتبنى وجهة النظر الاستعمارية الإمبريالية البالية، والتي تدور حول أطروحة عدم الاستعداد

والقابلية المتأصلة لدى شعوب العالم العربي، وعجزها عن تمثيل نفسها بنفسها، وتعلق بعض المحللين بأسباب عنصرية بائسة ومفضوحة.

فعندما تخلت جماعات الإسلام السياسي في العالم العربي عن منظومتها السياسية المتعلقة بالحاكمية استنادًا إلى نظريات دولة «تطبيق الشريعة»، وذهبت في ممارساتها إلى استدخال الديمقراطية، كنهج سياسي في تدبير الشأن العام، كانت نتائج الانتخابات محسومة لصالحها بأغلبية كبيرة، وسط تراجع مهين للأحزاب القومية والليبرالية واليسارية، الأمر الذي أثار قلقًا كبيرًا داخليًا وخارجيًا حول مستقبل الدولة المدنية الديمقراطية.

وعلى الرغم من التطمينات المتكررة التي أصدرتها الأحزاب الإسلامية بخصوص التزامها بحدود اللعبة الديمقراطية؛ إلا أن المخاوف من انتكاسة الثورات العربية إلى سلطوية جديدة بقيت حاضرة في السجال والجدال والنقاش؛ نظرًا لغياب التجربة الإسلامية المعاصرة في الحكم، وضعف الخبرة في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، تحت وطأة عبور مراحل انتقالية شاقة ومعقدة، في بلدان تعاني من أزمات بنيوية تاريخية اقتصادية واجتماعية وثقافية، لكن قوى «الثورة المضادة» بأجهزتها القمعية والأيديولوجية لم تمهل حركات الإسلام السياسي ومراقبة سلوكها ومدى التزامها، وانقلبت على مسارات التحول الديمقراطي عبر الانقلابات العسكرية، المفارقة تجلّت كمأساة حين التزمت جماعات الإسلام السياسي بقواعد اللعبة الديمقراطية، في حين تحالفت معظم القوى الليبرالية والقومية واليسارية مع الديكتاتورية العسكرية.

كانت الديمقراطية تقبع في صلب البرامج التي تقدمت بها الأحزاب الإسلامية التي فازت في الانتخابات التي جرت عقب الثورات، مثل: حركة النهضة التونسية، وحزب العدالة والتنمية المغربي، وحزب الحرية العدالة المصري، وحزب العدالة والبناء الليبي، وبقراءة البرامج التي تمكنت من خلالها الفوز بثقة وأصوات الناخبين في أول انتخابات شفافة ونزيهة تجرى عقب ثورة «الربيع العربي»، فإن برامجها تتوافر نظريًا على ضمانات تقطع مع الاستبداد والسلطوية الأحدية وترسخ لمنظومة جديدة من التعددية والحرية والعدالة والديمقراطية، وتكشف عن تحولات عميقة في التعامل مع سائر القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في إطار مرجعيتها الإسلامية، وهي مسائل شائكة ومعقدة تندرج في إطار الجدل الأكبر المتعلق بسؤال العلاقة بين «الإسلام والحداثة».

معظم الدراسات التي تناولت مستقبل الديمقراطية في العالم العربي تشكك في تحققها؛ بسبب تنامي قوة وشعبية الحركات الإسلامية، التي كما يروجون امتطت موجة التحول الديمقراطي واكتسبت قوة مضاعفة في شتى الميادين، وربما يكون هذا التقدم الإسلامي هو الذي دفع المفكرين وصانعي القرار في الغرب إلى التساؤل حول قابلية الشعوب العربية للديمقراطية، وبالنسبة إلى آخرين فإن دمج الدين بالسياسة يتناقض مع الحكم المدني الديمقراطي، ومما لا شك فيه أن الانبعاث الإسلامي وظهور حركات الإسلام السياسي شكل تحديًا خطيرًا للنخب الحاكمة في معظم أقطار العالم العربي بعد أن حققت هذه الحركات تقدمًا ملحوظًا في معظم الانتخابات التي أجريت على مدى عقود في الأردن واليمن والعراق والمغرب والجزائر ومصر وفلسطين، كما حققت الحركات الإسلامية حضورًا بارزًا كحركات معارضة في معظم الدول التي لم تتبن نهج المشاركة الشعبية كسوريا.

يعتبر التعريف الذي توصل إليه جوزيف شومبيتر للديمقراطية من أكثر التعريفات قبولًا وانتشارًا، باعتبارها: «الإجراءات المؤسساتية

المنظمة لعملية صنع القرارات السياسية، والتي يكتسب الحكام من خلالها قوة اتخاذ القرارات بالتنافس للحصول على أصوات الشعب»؛ وبناءً على هذا التعريف، فإن الديمقراطية أحد أشكال الحكومة الذي تتوفر فيه جملة من المعايير: كالمنافسة الحرة التي تتيح التداول السلمي للسلطة، والمشاركة السياسية وحق الانتخاب والاقتراع، وضمان الحقوق الإنسانية والمدنية مثل حرية التعبير والصحافة والانضمام **إلى الأحزاب السياسية وتكوينها**، ومسائلة الحكام وضمان حكم القانون، ويمكن الجزم بأن هذه المعايير لا تنطبق بصورة كاملة على العالم العربي؛ فالتحول الديمقراطي عملية انتقالية «تصبح من خلالها ممارسة السلطة السياسية أقل تعسفاً وأقل استثناء للآخرين» كما يرى هدسن، ويفرق بعض الباحثين بين التحول الليبرالي والتحول الديمقراطي؛ فيشير الأول إلى تغيرات تحد من سلطة الدولة في التدخل في حياة الناس ويسمح بالتعبير بحرية للمعارضة، أما التحول الديمقراطي فيشير بصورة خاصة إلى عملية التغير تجاه الانتخابات الحرة والمشاركة الشعبية.

ويشدد «هنتغتون» على أن التحول الديمقراطي عملية مطولة وشائكة تبدأ بسقوط نظام حكم قديم وتقيم نظام حكم ديمقراطي، وينتج في نهاية الأمر تثبيت دعائم وأركان النظام الديمقراطي؛ فالتحول الديمقراطي يتمتع بآثار بعيدة المدى أكثر من الليبرالية، أما الانتقال نحو الديمقراطية فيبدأ عادة عندما تتراخى القبضة المحكمة لأنظمة الحكم السلطوية، ويلاحظ أن الخطوات التي اتبعتها الأنظمة الانقلابية العربية لا زالت متواضعة وتقتصر على بعض الإجراءات الليبرالية التحررية مثل إعادة الحياة البرلمانية أو رفع الأحكام العرفية، وهي لا تتعدى كونها مجرد إجراءات تحررية جاءت نتيجة للضغوطات المختلفة والأزمات العميقة التي طالت شرعيتها.

ركزت الاجتهادات المبكرة المتعلقة بالتحول الديمقراطي على معرفة واكتشاف الشروط المسبقة التي يفترض أن تتزامن مع الديمقراطية، مثل العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافة السياسية وشرعية أنظمة الحكم والمؤثرات الخارجية، وتوصل «هنتغتون» إلى سبع وعشرين فرضية يمكن أن تقود إلى الديمقراطية، من أبرزها: ضرورة وجود اقتصاد سوق حر، وطبقة متوسطة قوية، ومستوى تعليمي عال، وروح بروتستانتية، وبنية ديمقراطية للسلطة داخل جماعات المجتمع، ومستوى منخفض من الاستقطاب السياسي والتطرف، وزعامات سياسية ملتزمة بالديمقراطية. وقد وجهت إلى هذه النظرية انتقادات حادة، كشفت عن ضعفها المنهجي؛ فإذا أخذنا معدلات الدخل المرتفع ومستويات التعليم العالي كمؤشرات على التطور الاقتصادي وارتباطها بالديمقراطية كنتيجة لعمليات التحديث، نجد أن الحقائق السياسية في الدول النامية تدحض هذا الادعاء؛ فالعمليات التحديثية الواسعة التي جرت في الخمسينيات والستينيات لم تؤد بالضرورة لعمليات التحول الديمقراطي؛ بل شهد العالم العربي في هذه الفترة ظهور أنظمة حكم سلطوية بشكليها الشعبي والمتوارث.

ويمكن القول إن أكثر أنظمة الحكم العربية ينطبق عليها الوصف الذي وضعه هدسن لـ«دولة المخابرات»، وهي الدولة التي تقوم على أجهزة الأمن وتعمل على أساس القمع والخوف وليس القبول الشعبي، وعلى كل حال فإن عملية التطور الاقتصادي التي أوجدت نظام الحكم السلطوي والبيروقراطي كان لها دور حاسم في نشوء الحركة الديمقراطية التي هبت على العالم العربي أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، فمن المعروف أن الاقتصاديات عندما تصبح أكثر تطوراً وثراء، تغدو مهمة الأنظمة السلطوية في المحافظة على السيطرة والتحكم أكثر صعوبة؛ فالتطور الاقتصادي يؤدي إلى الانفتاح السياسي إلا أن هذا التطور لا يستطيع تفسير الانتقال إلى الديمقراطية

وحده، فلا بد من توفر عوامل أخرى كالقيادة السياسية الفاعلة.

من أكثر المقاربات انتشارًا في تفسير غياب الديمقراطية في العالم العربي، المقاربة الثقافية التي تركز على القيم والمعتقدات والمواقف، التي تحكم خصائص وصفات الشعوب العربية كالنفاق واللاعقلانية والأعراف المتعلقة بالشرف باعتبارها صفات وقيمًا تناقض الديمقراطية، ولا يخفى على أحد تغلغل الرؤية الاستشراقية والعنصرية التي تتحكم في هذه التحليلات والفرضيات فضلًا عن نقاط ضعفها المنطقية والمنهجية؛ فمعظم هذه الدراسات تصر على أن المجتمع العربي يعاني من انقسامات لا يمكن إصلاحها وتصر على وجود عقلية عربية متماثلة تتسم بالجمود والانغلاق وتلقي باللوم على الإسلام باعتباره سببًا في غياب الديمقراطية، فيكتب «هنتنغتون» قائلًا: «لم يكن الإسلام منفتحًا على الديمقراطية ... فلا يوجد في الإسلام على سبيل المثال أي تفريق بين الدين والسياسة أو بين ما هو روحي وما هو علماني»، ويؤكد على أن المشاركة السياسية كانت تاريخيًا مفهومًا غريبًا على الإسلام، لكن المأزق الكبير الذي يقع فيه أنصار المقاربة الثقافية للديمقراطية تنبع من منهجية التعميم قبل الاستقراء والاعتقاد بوجود صفات جوهرية سلبية وجامدة للإنسان العربي والافتراض بأن الاعتقاد هو المؤثر الوحيد على الأفعال والسلوك.

وقد اعترف «هنتنغتون» في كتاباته المتأخرة بقصور ومحدودية المقاربة الثقافية؛ فالإسلام يشكل ثقافة معقدة كما أن الثقافات متحركة ومتغيرة وتتسم بالقدرة على التكيف والاندماج كما بيّن طلال أسد، ولعل السؤال الذي يطرح نفسه بقوة: ما هي الأشكال السياسية التي ستظهر في العالم العربي عندما يبدأ التطور الاقتصادي في التفاعل مع القيم والتقاليد الإسلامية؟

لا يزال الجدل والسجال في العالم العربي منذ التسعينيات يدور حول العلاقة بين الإسلام والسياسة، حيث بقي الإسلام دائمًا أحد مكونات القومية العربية؛ إلا أنه كان يقع في الدرجة الثانية أو الثالثة في الأهمية، وتصدر الإسلام الواجهة كقوة سياسية بعد فشل القومية العربية وعجزها عن تحقيق أهدافها، وشكلت الحركات الإسلامية تحديًا لأنظمة الحكم السلطوية التي بدأت تعاني من نقص واضح في شرعيتها، وتتلخص عناصر القوة لدى الحركات الإسلامية في شعبية شعاراتها من جهة ودخولها واندفاعها تجاه الانفتاح الديمقراطي من جهة أخرى، كما أن هناك رغبة عارمة عند الإنسان العربي بالتخلص من الحكم السلطوي، فالنخب الحاكمة ومعظم أنصار العلمانية لا زالت تتوجس خيفة من صعود الحركات الإسلامية بعد النجاحات التي حققها الإسلاميون في معظم الدول العربية التي سمحت بانفتاح ديمقراطي محدود، ولعل هذا التطور قاد إلى إعادة التفكير في موضوع الديمقراطية في العالم العربي خصوصًا بعد أن تراجعت أو تجمدت المطالب الأمريكية والأوروبية بالإصلاح، وضعفت الضغوطات الخارجية على النخب الحاكمة في العالم العربي.

وربما يكون الصراع الجديد الذي يدور بين الإسلاميين والنخب الحاكمة، أحد أهم العوائق التي تقف في طريق التحول الديمقراطي في العالم العربي، وما لم يعد الطرفان النظر في مواقفهما المتصلبة فإن الخسارة سوف تطال الجميع؛ فالآمال الشعبية العربية تنعقد على ضرورة وجود قيادات معتدلة من كلا المعسكرين مستعدة للانخراط في حوار شامل يترفع عن المكاسب والمصالح الشخصية والفئوية الضيقة، وينأى عن خطاب التخويف من ظاهرة الإسلام الديمقراطي الذي يطبع السلوك السياسي الثقافي للنخب المتحكمة بمصائر البشر الفاعلين.

إيران وسلاح الطائفية

د. محمد الجميح – نشوان نيوز ٢٠١٥/١/١٢

يركز العالم في تعامله مع إيران على نقطة جوهرية، هي تلك التي تتعلق بالمخاوف من امتلاكها السلاح النووي. غير أنها تحرص - فيما يخص تعاملها مع شعوب المنطقة العربية - على استعمال سلاح آخر أكثر فتكا بالنسيج الاجتماعي والأمن القومي العربي، أعني سلاح «الطائفية».

وإذا كانت إسرائيل لم تستطع اختراق النسيج الاجتماعي العربي، ولا التطبيع مع شعوب المنطقة العربية، حتى تلك التي ترتبط بدولها بمعاهدات سلام، فإن إيران، بعد أن «لبست ثياب الصديق»، أضرت بنسيج مجتمعاتنا أكثر من أي دولة أخرى. الطائفية في حقيقة الأمر هي سلاح إيران الأقوى في المنطقة، وهي اليوم تقتل العرب بالعرب في سوريا والعراق واليمن ولبنان، ولولا سلاحها الطائفي، لما تمكنت من ذلك. وقد استطاعت أن تغلف عداءها التاريخي الذي لم تستطع أن تتخلص منه للعرب بغلاف العداء لأمريكا وإسرائيل، في حيلة انطلت على الكثير من العرب للأسف الشديد، في الوقت الذي جرت حروبها داخل الأراضي العربية، وفي الصف العربي، وبالدماء العربية، دون أن تلتحم إيران مع واشنطن أو تل أبيب في معركة واحدة.

وما حاجة إيران لخوض حروبها بنفسها ما دامت تحرك أدواتها العربية لخوض تلك الحروب نيابة عنها، داخل الجسد العربي، بعد أن عمدت إلى انتزاع بعض أعضائه لتضربه بها وتضربها به، كي ينهك الجسد، ثم يتسنى لساسة إيران التحكم بمصير المنطقة، كما تمنيهم أحلامهم الإمبراطورية التاريخية.

ولعل إرسال طهران للإمام موسى الصدر إلى لبنان قبل ثورة الخميني خير شاهد على حرص طهران على ضم «الشيعة العرب»، إلى معسكرها، حيث بدأ الصدر بتكوين هيئات تنظيمية لإبراز المكون الشيعي في لبنان مغاير لغيره من المكونات، وقد ورث هذه الهيئات التنظيمية حزب الله الذي يخوض اليوم حروب إيران في سوريا.

والأسبوع الماضي، قال علي شمخاني، سكرتير المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني، في مراسم تشييع قائد محور سامراء في فيلق القدس، الذي قتل مؤخرا في العراق على يد قناص من مقاتلي تنظيم «الدولة الإسلامية» إنه لو لا تلك الدماء المسفوكة في العراق وسوريا «لضحينا بدمائنا في طهران وأصفهان وشيراز...»، في إشارة واضحة إلى أن كل ما يسكب من دم في المدن العربية، هو من وجهة نظر إيرانية مطلوب لحماية المدن الإيرانية.

وفي الحقيقة فإن المنطقة العربية لم تكن - قبل ثورة الخميني عام ١٩٧٩ - تعرف في تاريخها المعاصر، هذا الصراع الطائفي بين مكوني الجسد العربي، ولم تكن - لو لا إصرار قادة إيران على تصدير ثورتهم - تعرف هذا الانقسام الحاد بين مكوناتها الطائفية الذي عبر عن أكثر فصوله دموية في سوريا.

والعجيب أن إيران تصدر لنا كل تلك الصراعات الطائفية تحت عنوان براق مخاتل هو «الوحدة الإسلامية»، التي تقصد بها طهران انتزاع مكون «الشيعة العرب»، من جسدهم، وتوحيدهم مع رؤى وطموحات إيران، من أجل تحقيق أحلام تاريخية قومية ليس لها - إطلاقا - علاقة بالتشيع، ولا بآل البيت.